يقولُ الله تعالى: ﴿وقالَ الملِكُ أئتوني به﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ قولِه تعالى: ﴿وقال الملك﴾ فبمجَردِ أنْ نسمعُ هذه العبارةِ، يَمُرُّ في أذهاننا شريطٌ سريعٌ منَ الأحداثِ، كُلُّنا يعرفُ مَجْرَياتِه دونَ الحاجةِ إلى تَساؤُلٍ أو تَشَاور:

فنعرف:

أنّ الساقِي عادَ مُبتَهجاً إلى الملك، وقَصَّ عليه تعبيرَ المَنامِ، مما أراحَ الملِك.

وأنه نقَلَ إليه الحَلَّ المتكاملَ الذي أعطاهُ يوسفُ عليه السلام لإنقاذِ الناس، بعدَ أن تَبيَّنَ مدلولَ الرؤيا، وما تَحمِلُه منْ إنذار.

وأنَّ هذا الجوابَ، كان أكثرَ مما تَوَقَّعَ أو طلَبَ الملك: وهذه مسألةٌ نادراً ما تحْصُلُ بينَ الناس: أنْ يأتِيكَ خبرٌ صَاعِقٌ بحدوثِ قَحْطٍ وَجَدْبٍ وضيقٍ وإحصار، مع تهديدٍ حَقيقي ومباشِرٍ على الحياة والبقاء، وفي اللحظَةِ ذاتِها، يأتيكَ الحَلُّ الشامِلُ الكامِل، المشفوعُ بالتفاصيلِ الدقيقةِ لِكَمالِ تمامِ الخلاص.

وأنَّ المسألةَ برمتها انتشرتْ بينَ الناس، فإذا بالملِك يتكَلَّمُ علناً، لِيُحوِّلَ الحدث إلى حدثٍ اجتماعي عام، يقفُ الناسُ فيه موقفَ المنتظرِ المترقِّبِ ليرى رَدَّةَ فعلِ المَلِك.

إلى هنا يَسُوقُنا الذِهْنُ ونحن نَسْمَعُ: ﴿وقالَ المِلك﴾.

اللطيفة الثانية في قولِهِ: ﴿ائتوني به﴾.

في هذه العبارةِ أيضاً، الكَمُّ الغنيُّ منَ المعاني:

فالملوكُ يُخاطِبونَ الناسَ على قَدْرِ ما يُعْطُونَهم هُمْ منَ الأهميةِ والقَدْر، وهم يَتَحسَّسُونَ سُلْطَتَهم ويَسْتَغْمِلُونها بدرايَتِهم في أساليبِ الحُكْمِ. .

فإذا ما خاطَبُوا الوزراءَ والمقربين مثلاً، خاطبوهم بلينٍ ورِفْق.

إذا ما خاطَبُوا الأنداد، خَاطبوهم باحترامٍ وتقدير.

وإذا ما خَاطَبُوا الرُسلَ، والوُفود، خاطَبُوهُم بسياسةٍ وحُنْكَةٍ.

وإذا ما خاطبُوا العُصاةَ خاطبوهم بقسوةٍ وشِدّة.

وإذا ما خاطبوا الخَدم، خاطبوهم بعُلوٍ وتَرفُّع.

أمّا في هذه الحال فإنّ المعني بالخِطاب، هو إنسانٌ مجهولٌ لديه، سَجينٌ في أَحدِ سُجونهِ، لا يَعرفُ له جَاهاً ولا عِزاً، ولا يَعرفُ حتى لماذا هو مسجُون، وبِمُوجَبِ ما سَلَف منَ المراتب، فهو يَنْزِلُ في عُرْفَهِ أدناها.

إلا أنه في المقابل أنْجَدَه وفَرَّجَ كَرْبَه، وأَعطاهُ ما استعْصَى على الجميعِ إعطاؤُه، وأرسلَ له مع الساقي لُغزاً في شَخْصِه وشَخصِيتهِ وعِلْمِه، لم يستطعِ المَلكُ أن يَصْمُدَ أمامَ إلحاحِ داخلهِ بالتعرُّف إلى هذا الرجلِ المليءِ بالعلمِ، المنسيِّ في غيَاهِبِ السِجْن، فقال: **﴿ائتوني به﴾**.

فمِنْ جهةٍ أوْلى، كانَ في قولِه أمرٌ واضحٌ بعدمِ رفعهِ فَوْقَ ما يَفترض هو مِنْ مَقام.

ومِنْ جهةٍ ثانية، أدْخَلَ شَخْصَهُ في أمرِ الإحضار، تعبيراً عنِ الاهتمامِ الشديدِ بمجيءِ يوسفَ عليه السلام، ولم يَقُلْ مثلاً: أحضِرُوه، بل قال: **﴿ائتوني به﴾**.

اللطيفة الثالثة: في قوةِ الإيجازِ القرآنيّ، إذْ كما رَأينا، فإنَّ أربعَ كلماتٍ وجيزة، اختصرت كميةً منَ الأحداثِ المتعاقبةِ إظهاراً لِعُلُوِّ القرآن الكريم وتَفَرُّدِهِ

في العبارة، مِصْداقاً لقولِ الله تعالى في أولِ السُّورة: **﴿نحن نَقُصُّ عليكَ أحسَنَ القَصَص﴾**[١].

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا جاءَهُ الرسولُ قالَ ارْجَعْ إلى رَبِّكَ فاسأله﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُلِنا مُتَعجبين مُندَهشينَ مِنْ جوابِ يوسفَ عليه السلام، وهو يدفعُ القِصَةَ منْ جديد إلى مرحلةٍ جديدةٍ من التأزم: لقد طَلَبَهُ الملكُ شخصياً، مقصوداً مطلوباً لشخصهِ لرؤيتهِ، فرفَضَ بلباقةٍ وذَكاء، مُفتَتِحاً تساؤلاً، سيُصْبِحُ قريباً لُبَّ الاهتمامِ وقَلْبَ الانشغال.

وإذا ما تأملْنا واقِعَ حالِ يوسفَ عليه السلام في هذه اللحظات نَجِدُ:

أنه وبعدَ طُولِ نِسيانٍ وقَعَ عليه الاهتمامُ فجأة، ليس من قِبلِ السَّجَّان، أو القاضي، ولا حتى العزيز بل منْ أعلى سُلْطةٍ في البلاد، منَ الملكِ بنفسه، وطلَبَهُ إلى مَجْلسِه.

وطبيعةُ البشر تَسُوقُهُم سِراعاً إلى الفرحِ والسُّرورِ والحُبورِ بهذا الخبر، والانكبابِ مباشرةً على سُرعةِ التلبية لِمَا في ذلك من تفريجِ الكَرْبِ، والخَلاصِ منَ السجنِ، ولِما في ذلك من عُلوٍ في المكانةِ والشأن، ولِمَا في ذلك من تَحَوُّلِ الأنظارِ إليه.

وفي أقلِّ الأمورِ احتمالاً، حتى ولو تجَاوَزَ الواحدُ منّا كُلَّ هذه الاعتبارات، فإنه حين يأتيهِ الأمرُ منَ الملكِ بوجوبِ الحُضور، فلا يَتَرَدَّدُ في الإجابةِ خوفاً منْ بَطْشِ المَلِك.

(١) [سورة يوسف ، الآية: ٣].

أمّا يوسفُ عليه السلام، فقد آتاهُ الله تعالى منَ الصّفاتِ ما يَرْقى به عَنْ تصَرُّفِ النّاسِ في هذه الأحوال، ومن هذه الصفات:

➢رباطةُ الجأشِ، وضَبطُ النَّفْسِ ومَنْعُها منَ الإسراعِ في تلبيةِ رَغْبَتِها في الحصولِ على الحريةِ حتى يكونَ قدِ استكملَ ما يجبُ إظهارُهُ من براءَتِه.

➢بعدُ النظرِ وحُسْنُ التَّخْطِيط.

➢التّعالي عنْ مُغرياتِ بَهْرَج الدُّنيا منْ مقابلةِ سادة القوم، تحتَ أيِّ ذريعةٍ ولأيِّ سببٍ كان.

➢قوةٌ ومَنَعَةٌ بالله تعالى في رفضِ طَلَبِ الملكِ بالحضور.

➢إحداثُ الدَّهشةِ لدى الآخرين أولاً في إعطائِهم كُلّ ما يَطلبُونَ منه ثانياً في رَفضِهِ المُكافأة قَبْلَ إحقاقِ الحق.

اللطيفة الثانية: في تأَمُّلنا للصِّيغةِ التي استَعْمَلها يوسفُ عليه السلام في إجابتِهِ لأمرِ المَلكِ بإحضارِه.

فقالَ عنْ ثقةٍ تامةٍ لا تَرَدُّدَ فيها: ﴿**ارْجِعْ**﴾.

خاطَبَ المَلِكَ بصيغةِ انعدامِ ولايته عليه بقوله: ﴿**ارْجِع إلى رَبّكَ**﴾.

وجعلَ الخِطابَ بصيغةِ الاستفهام، وهو يقولُ له: ﴿**ارْجِعْ إلى رَبّك فاسأَلْه**﴾.

نحن معَ هذه الصِيغة نَسْتَشعِرُ القُوّةَ المعنويةَ العالية، التي يَتحدَّثُ بها يوسفُ عليه السلام معَ الملكِ بصورةٍ غيرِ مُبَاشِرَة.

فهو يُشْغِلُ المَلِكَ مع هذا السؤال بمسألةٍ لم تَكُنْ تَخْطُرُ له ببال وفي غَمْرَةِ امتلاءِ نفسِه بمعاني وحيثيّاتِ تأويلِ حُلُمِهِ، وكيفيةِ وجوبِ مُجابهةِ الخَطرِ القَادِمِ، إذا به يجدُ نَفْسَهُ مُرْغماً على وَضعِ هذا الانشغالِ جانباً، للدُّخولِ في إيجادِ

الجوابِ عنْ سُؤالِ يوسفَ عليه السلام، مع ما يَستَدْعِي ذلكَ منَ العَودةِ إلى أشخاصِ الحدث، ومُراجعةِ مُجرياتِ ما حصَلَ بَعْدَ سنواتٍ مِنْ حُصولِه، ليجدَ نفسَه في موقعِ الحكمِ الذي يُعيدُ مُحاكمةً غيرَ عادلة، لم تَحصُلْ أصلاً، ذَهَبَ ضحيتَها يوسفُ عليه السلام ظُلماً وافتراءً.

اللطيفة الثالثة: في الإشارةِ إلى المَلكِ بعبارة: «**ربِّك**» تماشياً مع سِياقِ السَرْدِ الذي رَاعى ما أَلِفَهُ الناسُ زمَنَ يوسفَ عليه السلام في استعمالِ كلمةِ رَبّ للدَّلالةِ على السَّيد، وقد سَبَقَتْ مِنّا الإشارةُ في الآياتِ السابقة إلى رحَابَةِ صدرِ اللغةِ العربيةِ في استعمالِ تعابيرِها.

ثم يقولُ الله تعالى في ختامِ الآية: ﴿**ما بالُ النّسوةِ اللاّتي قَطَّعْنَ أيديَهُنَّ إنّ ربِّي بكيدهِنَّ عليم**﴾.

وفي هذا إيضاحٌ بليغٌ ولَطيفٌ وجميلٌ في آن.

فهو بليغٌ لأنه أشارَ إلى الكُلِّ بالجُزء، ونحنُ نَعلَمُ أنَّ السُؤالَ يَشْمَلُ نِسوةَ المدينة، كَطَرَفٍ فَرْعي، وامرأةَ العزيز، كَطَرفٍ أساسي.

وهو لطيف لأنه لم يذْكُر فيه امرأةَ العزيز، تَرَفُّعاً عنِ الإشارةِ إلى مُرَاوَدَتِها له عنْ نَفسِه.

وهو جميلٌ لأنه إنما أمسَكَ بطرفِ الخيطِ في الإشارةِ إلى الحدثِ من خلال نتيجته، لا من خلال سببه، بقوله: ﴿**اللاتي قطعن أيديهن**﴾ ولم يقل: اللواتي ائتمرن بي، أو اللواتي وافقن امرأة العزيز في سَعيها ومُبتغَاها.

ويُنْهي يوسفُ عليه السلام رسالتَه إلى الملكِ بقوله: ﴿**إنّ ربِّي بكيدِهِنَّ عليم**﴾.

مواطن الاسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب عدم الإستعجال في تلقف الأعطية، ومقاومة الرغبة بالحصول عليها. لاحتمال أن الإفادة الجزئية منها، تغطي فوت ربح أكبر يشترط للحصول عليه بعض الصبر.

٢ - للدلالة على أن طلب إحقاف الحق غير مقيد بزمن معين، ولصاحب الحق الذي ظُلم أن يطلب رد اعتباره ولو بعد فترة طويلة في وقوع الظلم عليه. وليس له أن يركن إلى أن حقه سيؤخذ له في الآخرة، فمن استطاع تحصيل حقه في الدنيا. وجب عليه السعي لذلك.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤١].

تُتابعُ معنا أخي المؤمن هذه الآية في نَقْلِ ما جَرَى مِنْ أحداثٍ، بعدَ أن صارَ يوسفُ محورَ اهتمامِ الملك، ولقد رأينا في الآيةِ السابقة كيف استطاعَ يوسفُ عليه السلام أن يُحوِّلَ الانتباهَ مِنْ مسألةِ رُؤيا الملك الهامةِ جداً، إلى الدخولِ في دربِ إنهاءِ مِحنتهِ في السِجن.

يقول الله تعالى: **﴿قال ما خطبكن إذ راودتُن يوسف عن نفسه﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: وكما في سالفِ الآيات، نَجِدُ أنّ النّصّ القرآنيّ يَتجاوزُ

التفاصيلَ التي يستطيعُ القارئ والمستمعُ أن يَعِيَها بنفسِه، فبمجرّدِ أنْ نسمعَ ﴿قال ما خَطْبُكُنّ﴾ نفهَمُ العديدَ منَ الأُمور:

نفهمُ أنّ الملكَ أستمعَ إلى جوابِ يوسفَ عليه السلام حينَ رفضَ الخروجَ منَ السِجن، وأحالَ عليه مسألةَ إنصافِهِ.

ونفهمُ أنّ الملكِ قَبِلَ هذه المُهِمّة، ونَصَّبَ نفْسَه للفَصْلِ في هذه القضية، وأولاها الاهتمام الفائق، إذْ تركَ كلّ مَشَاغلِهِ وانطلَقَ يَبْحَثُ عنِ الحقيقة.

ونفهمُ أنه استمعَ إلى القِصةِ بكامِلها، واستَحضَرَ عناصِرها وأطرَافَها، واحضرَ إلى مَجْلِسِه منْ كانَ ضالعاً فيها.

ونفهمُ أنه حينَ اكتملَتْ لديه كافةُ عناصرِ القضية، بنى خُطَّةً لاستدراجِ الفُرقاءِ لحمْلِهم على البَوْحِ بالحقيقة.

عندها، بدأ مَجْلِسَه بالقول: ﴿ما خَطبُكُنَّ﴾.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ قوله: ﴿ما خَطْبُكُنَّ﴾.

الخَطْبُ في اللغةِ العربية: الحدثُ الجلل، وهو لا يستعملُ عادةً إلا في الأمورِ الهامّة، فهو لم يبتَدِرْهُنّ بالقول: ما بالُكُنّ مثلاً، بل أرادَ أنْ يُعطي المسألةَ ما تَسْتَدعيهِ منْ حزمٍ ودِقّة، فقال: ﴿ما خَطْبُكُنّ﴾.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿إِذْ رَاوَدْتُّنَّ يوسفَ عَنْ نَفْسِه﴾.

لقد عبرَّ الملكُ في قوله هذا من درجةٍ عاليةٍ من الذكاء، وكانتِ الصيغُ التي يستطيعُ اعتمادَها مُتنوّعة، كأن يقولَ مثلاً: ما قِصَّةُ يوسف؟ بالمطلقِ دونَ تحديد، أو أنْ يسأل: هل يوسفُ مُذْنب؟ هل تَجاوَزَ حُدودَه وأساءَ التصرُّف؟ وإلى ما هناكَ من صِيغَ السُّؤال.

إلا أنه فضّلَ استعمالَ صِيغةِ الاستفهامِ الإنكاري مُعَبِّراً بذلك عنْ تَجاوُزِه

للمعلومةِ الأوّلية، وهي اتهامُ يوسفَ عليه السلام، للاستفهامِ عنْ سببِ مُرَاوَدَتِهِنّ له، فلئن كانَ حقاً مُذْنباً، فالدفعُ يجبُ أنْ يكونَ أقوى من جِهَتِهِنّ مثال ذلك أنْ تُبادرَ ولَدَكَ بالسؤال: كم قِطعةَ حلوى أخذت دونَ أنْ تسألَهُ ما إذا كانَ هو الذي أخذَ الحلوى فلئن كان حقاً أخذها، سيقرُّ في نفسه أنك على دِراية، ويَذْكُرُ العدد، ولئنْ لم يَكُنْ أخذَها حقّاً، فإن دِفاعَهُ سيكونُ أقوى، لِينفي بالكُليَّةِ وبالقوةِ المطلوبةِ أخْذَها.

فانظُرْ أخي المؤمن إلى دِقةِ القرآنِ الكريم في التعبير.

ولقد نجحت خطة الملك في حضهِنَّ على الاعتراف.

فنسمعُ قولَ الله تعالى: **﴿قُلْنَ حاشَ لله ما عَلِمْنَا عليه مِنْ سُوء﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قوةِ الدّفعِ التي سَاقَتْها النِّسْوَةُ جواباً عَنْ سؤال الملك: لقد وَجَّه إليهِنّ اتِّهاماً مُبَطّناً يَطْلُبُ فيه إقراراً وإيضاحاً:

إقراراً عن حَالِهِنّ ما إذا كُنَّ قدِ ائتَمَرْنَ بيوسفَ عليه السلام.

وإيضاحاً عنْ حالِ يوسفَ وتَصرُّفِه، إما ابتداءً أو تفاعُلاً معَ حدثِ المُراودَة.

فكانَ الجوابُ مِنهُنّ حازِماً جازماً صريحاً: إنه بريءٌ كُلَّ البراءَةِ من كلِّ ما نُسِبَ إليه.

وإيرادُ صيغةِ **﴿حاشَ لله﴾**، أعلى وأقوى من مجردِ النَّفي البَسيط.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لحالِ النِّسوة في جوابِهِنّ قَبْلَ السَجن وبَعْدَه: لقد قالتِ النِّسوة يومَ جَمَعتهُنّ امرأةُ العزيزِ ورَأينَ يوسفَ عليه السلام: **﴿حاشَ لله ما**

هذا بشراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم﴾(1).

والآن تقولُ النِّسْوَة: **﴿حاشَ لله ما عَلِمْنا عليه مِنْ سوء﴾**.

وفي كلا الحالين النساءُ في دَهْشَةٍ وعجب معَ اختلافٍ في الدّوافِعِ والظُّروف.

ففي الحالِ الأولى كُنّ في موضعِ استكشافٍ وتعرفٍ إلى هذا الذي شَغَفَ امرأةَ العزيز حُبّاً، وأتينَ للومها، فإذا بِهِنّ عندَ رُؤيتهِ يُوافِقْنَها وقد بهَرَهُنَّ جمَالُه.

أمّا في الحالِ الثانية، والظروفُ تُعلِمُنا أنّ النّسوةَ عَلِمْنَ ما كانَ من أمرِ رُؤيا الملِك، ومن تفسيرِ يوسفَ عليه السلام لهذه الرُؤيا دونَ مُقايضةٍ، أو مُساوَمَة، إضافة إلى ما سَبَقَ وعَرفْنَ عنه مِنَ الاستقامةِ والنّزاهةِ والعِفّةِ والترَّفُع، هذه الأمورُ دَفَعتهُنّ إلى الاعترافِ المَدوّي ببراءتِه، النّافي بصورةٍ قاطعة، أيَّ جُنوحٍ في تَصَرُّفه.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لدقةِ التعبيرِ القرآنيِّ في إيرادِ كلمةِ: «مِن» في قولِهِنَّ: **﴿ما علِمْنا عليه مِنْ سُوء﴾**.

و«مِنْ» هنا تأتي لتنفِيَ نفياً قاطعاً أيّ سوءٍ مَهما كان نَوْعَهُ ومُستواه، ولو قُلْنَ ما عَلِمْنا عنهُ سوءاً، لجاءَ المعنى أقَلَّ قوةً، وأضْعَفَ حَزْماً.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالتِ امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أنا راوَدْتُه عَنْ نفسِه وإنه لَمِنَ الصَّادقين﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في الدخولِ المفاجىءِ لامرأةِ العزيزِ إلى مَيدانِ الحِوار وإلى هذا الجُزْءِ بكاملِه منَ القِصّة:

(1) [سورة يوسف، الآية: ٣١].

فيوسفُ عليه السلام، حينَ أرسَلَ السُّؤالَ إلى الملكِ معَ الرسول لم يُشِرْ إلى امرأةِ العزيزِ بأيةِ كلمة، بل قال: **﴿ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسألْهُ ما بالُ النّسْوَةِ اللاتي قَطّعْنَ أيْدِيَهُنّ﴾**.

وحين تكَلَّم الملك، تكَلّمَ مع النّسوة إذْ قال: **﴿ما خَطْبُكُنّ﴾**.

إلا أنَّ الحَلْقَةَ الأساسيةَ في كلِ المسألة هي امرأةُ العزيز التي مِنْها بدأتِ المحنةُ على يوسفَ عليه السلام، ومِنها يجبُ أن تنتهي، فكانَ دخولُها دائرةَ الضوءِ ضَرورياً، وكانَ دُخولاً فاصلاً ومُدَوِّياً ليحملَ معَه بالصورةِ العَلَنِيَّةِ على الملأ جَميعاً على مرِّ التاريخ، بَرَاءَةَ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في قولِ امرأةِ العزيز: **﴿الآنَ حَصْحَصَ الحقّ﴾**.

في هذه الصيغةِ جماليةٌ فريدة:

ففيها افتتاحُ إعلانٍ هام، يَسْتَوجِبُ لَفْتَ الانتباهِ، فاستعْمِلَتْ صيغةٌ غيرَ مألوفةٍ في الكلام، تُوازِي المؤثراتِ الصوتيةِ فيما تَحْمِلُه كلمةُ: **﴿الآن﴾** إلى الأُذُنِ مِنْ تنبيهٍ واستحضار.

وإيرادُ كلمةِ **﴿حَصْحَصَ﴾** تَحْفِيزٌ آخر، لأنها مِنْ غريبِ المُفْرَدَات، **وأصلُها:** وضَحَ وَتبَيَّنَ بعدَ خفاء، قال الزَّجَّاج: أصلُها: حَصحصَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ حصة، أي: بانَتْ حصة الحقِ مِنْ حصةِ البَاطِل.

وحينَ تسمعُ **﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقّ﴾**، تتَنَبَّهُ وتَسْتَعِدُّ لِتَلَقِّي خبرٍ هامٍ، ولقد جاءَ هذا الخَبرُ إذْ قالت:

﴿أنا رَاوَدْتُهُ عن نَفْسِه وإنه لَمِنَ الصّادِقين﴾.

وفي هذا القولِ دِقّةٌ فِقْهِيّة.

ففي أيامِنا الحاضرة، يُبْنَى الدليلُ على براءَةِ أو جُرمِ شخصٍ على أحدِ أمرين اثنين، إما إقرارٌ أو شهَادَة.

بمعنى: إمّا أن يَعْترِفَ المذنبُ بِذَنبِه، فيُجرَّمُ ويُحْكَمُ عليه، وإمَّا أنْ يَشْهَدُ عليه مَن يُوثَقُ بقوله، فيُجَرَّمُ ويُحْكَمُ عليه.

وكذلك في البراءة: فإمّا أنْ يعترفَ المدّعي ببراءةِ المُتّهم، وإمّا أنْ يَشْهَدَ لهُ مَنْ يُوثَقُ بقوله مع ما يستَلْزِمُ ذلكَ مِنْ مُسْتَتْبعَاتِ الأَدِلّة، فيُبَرّأ.

أمّا امرأةُ العزيز، فلقَدْ أَخذَتْ بأدواتِ التبرئةِ جميعاً.

فقالت: ﴿أنا رَاوَدْتُهُ عَنْ نفسِه﴾ وفي هذا إقرار.

ثم قالت: ﴿وإنه لَمِن الصَّادِقين﴾ وفي هذا شَهَادَة.

اللطيفة الثالثة: في الوقوفِ عندَ افتراقِ معاني العِبارات، رُغْمَ تَطابُقِ مَبانيها، بِحسَبِ اختلافِ الظُّروفِ التي قِيلَت فيها.

فامرأةُ العزيزِ قالتْ يومَ جَمَعَتِ النِسْوَة: ﴿ولقَد رَاوَدْتُه عنْ نَفْسِه﴾[1].

وهنا تقولُ: ﴿أنا راوَدْتُه عنْ نفسِه﴾.

ولكنّ الفرقَ شَاسِعٌ جداً بين هذا القولِ وذاك:

هناكَ كانتْ تَسْتَعِرُ غَضَباً ورَغْبَة.

وهنا تَقِفُ مَوقِفَ المقر المُعْتَرِفِ بذنْبِهِ.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قَوْلِها: ﴿وإنه لَمِن الصّادقين﴾ وهي خَتْماً الكلمةُ الفَصْلُ في هذا الفَصْل:

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣٢].

لقد انتظرَ يوسفُ عليه السلام هذه الكلمةَ طويلاً، ودفَعَ مِنْ أجْلِها سَنواتٍ عديدةً مِنْ عُمره، ومِنْ أجلِها رَفَضَ عَرْضَ المَلِكِ بالخروج..

وهذه الكلمةُ ستَزيدُ مِنْ رَصيدِه عندَ الملك، الذي يُرَاكُم في ذِهْنِه صِفاتِ يوسفَ عليه السلام، الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى تَصِلُهُ تِباعاً معَ تَسَلْسُلِ الأحداث، حتى يصلَ إلى القِمَّةِ في الانبهارِ معَ هذه الخاتِمَةِ المشرِّفَةِ ليوسفَ، فيَسْتَعِدَّ لِيُنِيطَ به أرْفَعَ وأَدَقَّ مَنْصِبٍ في زمانِهِ..

مواطن الإسترشاد وبالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الحق سيظهر حتماً ولو بعد حين، إما على لسان من ارتكب الظلم، وإما بظهور الأدلة المبرئة.

٢ - للدلالة على أن النفس البشرية مبنية على الفطرة السليمة أصلاً، ثم يعكر صفاءها، يصيبها من نوازع ورغبات وانقياد لوساوس الشيطان، فإذا ما انزاحت هذه النوازع والوساوس عاد إلى النفس نقاؤها ورونقها وجمالها، فتقر معترفة بما بدر منها

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٢]

نتابع مع هاتين الآيتين أخي المؤمن ما كان من آخر تفاصيل أحقاق الحق بتبرئة يوسف عليه السلام، وكان ذلك بمبادرة الملك إذ أعاد أحياء ملف اتهام يوسف عليه السلام، سجنه ظلماً وعدواناً، فكان أن اعترفت النسوة أولاً، ثم

اعترفت امرأة العزيز، بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأنه بريء من كل ما نسب إليه، وبالتالي فهي تعترف ضمناً بأنه سُجن ظلماً وعدواناً.

إلى هنا، ينتهي مشهد المحاكمة، وقبل أن يتلفظ الملك بقوله النهائي للفصل في هذه المسألة، شاء الله تعالى أن يعلمنا بما كان من رد فعل يوسف عليه السلام، حين بلغه أن امرأة العزيز، ومعها نسوة المدينة قد اعترفن بما كان منهن من مراودة، فماذا قال؟

يقولُ الله تعالى: **﴿ذلكَ لِيعْلَمَ أني لم أَخُنهُ بالغَيبِ وأنَّ الله لا يَهْدِي كَيدَ الخائنينَ﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: أنّ الآيةَ تحتوي الكَثيرَ منَ الترميز، ممّا يَسْتَوجِبُ مِنّا الوقوفَ عندَ واقعِ حالِ يوسفَ عليه السلام، حينَ قالَ هذا القول:

فلقَد أُوْقِفَ موقفَ المُتَّهَمِ الخائن حينَ استبقَ البابَ معَ امرأةِ العزيز وألفياهُ لدى الباب، فبادَرَتْ باتهامِه، فأصبحَ في نظرِ العزيزِ لحظةَ اتهامِها له، وكأنه الخائنُ لِحُسْنِ الاحتضانِ والتربية، ولقد دَفَعَ عن نفسِه بما أُوتِي منْ قُوّة، ثم حصَلَتْ حادثةُ النِّسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيدِيَهُنّ وأعْقَبها سَجْنُه حينَ أشكَلَ على العزيزِ مَعْرِفَةُ الحقيقة، وبقيَ في نفسِ يوسفَ عليه السلام، هاتفٌ يَدْعُوهُ مِنْ أعماقِه لِيقولَ بأعلى صوتِه: أيها العزيزُ أنا لَمْ أَخُنْكَ بالغيب.

ثم دارتِ الأيام، أمضَى يوسفُ عليه السلامُ ما أَمْضَى من سنواتٍ في السجنِ إلى أنْ شاءَ الله تعالى أنْ يُبَدِّلَ الأحوالَ عنْ طريقِ رُؤيا الملِك، وما كانَ مِنْ ذكاءِ يوسفَ عليه السلامُ في إعادةِ استحضارِ مسألةِ سَجْنِه، ولا تَزَالُ في نفسِه الرّغبَةُ في إظهارِ بَراءَتِه خُصوصاً أمامَ العزيز.

ولماذا العزيز؟

لأنّ هذا الرجلَ سَهِرَ على حُسْنِ تَربيتِهِ: لقدِ اشتراهُ في السوقِ صغيراً ضعيفاً، فتعهَّدَهُ بالرعايةِ والحِماية، وأنبته نباتاً حسَناً، وأحسنَ مَثْوَاهُ حتى شَبَّ في كَنفِ العِزِّ والرّخاء، وبلَغَ أَشُدَّهُ كالشامةِ بينَ الحَاشيةِ، ويوسفُ عليه السلام، لا يَنْسَى شيئاً منْ هذا.

فإذا ما أُعطِيتْ للعزيزِ عن يوسفَ عليه السلامُ صورةُ الإنسانِ الذي نقَضَ العهد، وغَدَرَ به، واسْتَغَلَّ إحسانَه وكرمَه، وتَعَدَّى على حُرْمَتهِ، وبقيتْ هذه الصورةُ منطبعةً في ذِهنهِ، فإنّ يوسفَ عليه السلام الذي حبَاهُ الله تعالى بخصائصِ العِفةِ والنُّبْل، لا يستطيعُ أنْ يدَعَ هذه الصورةَ في مكانِها، وله أنْ يُزِيلَها بكُلِّ ما آتاهُ الله تعالى مِنْ وسائل..

فلمّا سَمِعَ باعترافِ امرأةِ العزيزِ وهي تُبَرِّؤُه، كانَ أوّلَ ما قال: ذلكَ لِيعْلَمَ (أي العزيز) أني لم أَخُنْهُ بالغيب.

اللطيفة الثانية: في قوله: **﴿لم أَخُنْهُ بالغيب﴾**.

وفي هذا جماليةٌ لغوية: لقد أرادَ إظهارَ بشاعةِ جُرمِ الخِيانة، فوَصَفَ حُصولَها بالغيب، أي: لم أسْتَتر وراءَ الحُجُبِ والأبوابِ المغلقة، والتخفِّي والغيابِ عنْ أعيُنِ الناس، وكأنه يُشيرُ إلى ما سَلَف من آياتٍ في وصفِ حالِ امرأةِ العزيز، حيثُ نقرأُ: **﴿وغَلَّقَتِ الأبوابَ﴾**(١) كمِثْلِ حالِ ما دأبْنا على تسميتِهِ في أيامِنا الحاضرة بالجريمةِ المُدبرَّة.

اللطيفة الثالثة: في قولِه: **﴿وأنَّ الله لا يَهْدِي كيدَ الخَائنين﴾**.

وفي هذا القولِ إرساءٌ لقاعدةٍ أساسيةٍ من قواعدِ الحياةِ الدنيا: إن الخيانةِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢٣].

فعلٌ مُسْتَهْجَنٌ مُسْتَقْبَحٌ، وإنّ منِ ارتكبَ فِعْلَ الخِيانةِ فإنّ مآلَهُ إلى الهلاكِ والضّياعِ لأنّ الله تعالى يَمْنَعُ عنه الهِدايةِ، فهو يَتَخَبَّطُ في ظَلامِ الشَكّ والتردُّد، تَنْعَدِمُ لديهِ الثوابتِ، ويضيعُ القِياس، فيسيرُ على غيرِ هُدى، حتى ولو اجتهدَ ونظرَ وتَفكَّر، حتى ولو التجأ إلى ثوابتِ الآخرين، أو طَلَبَ مِنْهُم المَعُونَةَ: إنه ضَآلٌ تائهِ، يستَشْعِرُ الضّياعَ في داخلِهِ، وهذا منْ أسرارِ الله تعالى، حين يُصَابُ الخَائنُ بهذه الأحوالِ منَ الاهتزازِ والاضطراب، وفُقْدانِ الاتّزان، ويَنْتَهِي به الحالُ إلى الانهيارِ والدّمارِ الذاتي، والشواهدُ في التاريخِ كثيرةٌ عَنْ مصيرِ الخائنين.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام، **﴿وما أُبَرِّىءُ نفسي إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ إلا ما رَحِمَ ربِّي إنّ ربّي غفورٌ رَحيم﴾**.

في هذه الآيةُ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: فيما نَلْحظُهُ منْ صِفةٍ أُخرى جديدةٍ، نَتعرَّفُ إليها في يوسفَ عليه السلام، ألا وهي التَّذَلُّلُ والخضوعُ لله تعالى.

فبعدَ أنْ شَعَرَ أنّ حَقّهُ قد وصَلَه، وأنّ الملأ كُلَّهُم قد عَرَفُوا أنه سُجِنَ ظُلْماً وعُدْواناً، وبعدَ أنْ أرسَلَ عبرَ أَلْسِنَةِ الناسِ وآذانِهم رسالتَهُ إلى العزيز التي طالما أرادَ إرسالَها إليه بالفمِ الملآن، وعلى رُؤوسِ الأشهاد، بعدَ أنْ بلَغَ كُلّ ذلك من رَدِّ الاعتبار، لم يَنْسَ نَفْسَه، ولم يَغْتَرّ بزَهْوَةِ الانتصار، فقال بتجرُّدٍ كامل مُعلناً التصاقَهُ بإنسانيتهِ، مُتَبَرِّئاً منْ حَوْلِهِ وقُوَّتِه إلى حَوْلَ الله تعالى، مُجَدِّداً إعلامَ الدُّنيا عَنْ مُهِمَّتِهِ الأساسيةِ بالدعوةِ إلى الله تعالى، فإذا به يقولُ قولاً غَنياً بالمعاني زَاخِراً بالتواضع.

فهو ينطَلِقُ مِنْ نفسِهِ فيقول: **﴿ما أُبَرِّىءُ نَفسِي﴾**، أي إنّي بَشَرٌ مَثَلي كمَثَلِكُمْ، أحمِلُ بينَ جَنْبِيَّ نَفْساً كما أنتم، فهو يتساوَى والناس في مُنطَلَقِ

كلامه، وهو يُشيرُ مِنْ خِلالِ ذلك إلى أنَّ ما شَهِدْتُمْ منْ إعلانِ بَراءَتِه، وما يحملُ في طَيّاتِه منْ إعلامٍ عنْ عِفَّةٍ وترفعٍ، وحِفْظِ أمانةٍ وصَبْرٍ على الظُّلْم، لا يَرْفَعه فوقَ مستوى البَشَر، ولا يَنْزِعُ عنه بَشَرِيَّتَه.

لماذا؟

يتابع: ﴿**إنّ النّفْسَ لأمّارةٌ بالسوء**﴾، أي إنّ الله سبحانَهُ وتعالى إذْ خلَقَ البشَرَ جعلَ لَهُمْ في دارِ الدُّنيا دارَ امتحانٍ واختبار، دارَ ابتلاءٍ وبلاء، وترَكَ لهُمُ الخِيارَ في سُلوكِ ما يشَاؤُونَ من طريقٍ بعدَ أنْ أوضَحَ لهُمُ المَسالك، وأراهُم طريقَ الهِداية، وإنَّ مِنْ شِيمةِ النفسِ أنْ تَدْعُو صَاحِبَها إلى الاستكانةِ والرُّكونِ إلى الدنيا، وليسَ أدَلَّ على ذلك ما ذَكَرَهُ الإمامُ القُرطبي عنْ حَديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ قال: «**ما تقولونَ في صاحبٍ لكُمْ إن أنتُم أكرمْتُموه وأطعمْتُموه وكَسَوْتُموه، أفْضَى بكُم إلى شَرِّ غاية، وإنْ أهَنْتُموه وأعرَيْتُموهُ وأجَعْتُموه، أفضى بكُم إلى خيرِ غاية؟**» قالوا: يا رسولَ الله! هذا شَرُّ صاحبٍ في الأرض، قال: «**فوالذي نَفسِي بيدِه: إنها لنفوسُكُمُ التي بينَ جَنوبِكم**».

ثم يُتابعُ يوسفُ عليه السلامُ مُعَقِّباً: ﴿**إلا ما رَحِمَ ربِّي**﴾ «وما» هنا، بمعنى مَنْ، أي: إلا مَنْ رَحِمَ ربّي فَعَصمه، فأرادَ بذلك أنْ يتواضعَ لله، ويَهضِمَ نفْسَه، لئلا يكون لها مُزَكّياً ومُفتخِراً، وكما قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أنا سيّدُ وُلِدَ آدَمَ ولا فخر**». وليُبيِّن أنّ ما فيه من الأمانة، ليس به وَحْدَه، وإنما هو بتوفيقِ الله وعِصمتِه ولُطْفِه.

وفي هذا الاستثناء نُصْحٌ وتنبيهٌ وترغيب:

فهو نُصحٌ للناسِ كافة، بوجوبِ إدراكِ الخَطَرِ الدّاهمِ الذي يَترَبَّصُ بهم، إن هُمُ انصاعُوا لما تَدْعُوهم إليه نفوسُهم مِنَ الرُّكُونِ إلى الدنيا.

وهو تنبيهٌ لهم مِنْ خَطرِ الانزلاقِ إلى مَصائدِ الشيطانِ المُتربِّصِ بهم.

وهو ترغيبٌ في الانعتاقِ مِنْ أسرِ النَّفْسِ، والانطلاقِ إلى رِحابِ رحمةِ الله تعالى الواسعة التي فَتَحَها لكلِّ الخلائقِ بلا استثناءِ إلا مَن استثنى نفسَه.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لِتَغيُّرِ الأُسلوبِ في هذه الآية، عَمّا سَلَفَهُ مِنَ الآياتِ في هذا المشهد، فبعدَ أنْ كانَ مَضمونُ الآياتِ يحملُ وقعاً مُتسارِعاً لتوافُقهِ معَ غزَارَةِ الأحداث، وموضوعِ الحَدَث، إذَا به يَهْدَأُ معَ هذه الآية، ليصبحَ أُسلوبُ النُّصحِ والإيضاحِ والإرشادِ مُوَجَّهاً إلى كلِّ الناسِ في كلِّ الأزمان.

اللطيفة الثالثة: في ما نَلْحَظُهُ في آخرِ الآية مِنْ تَنَاسُقِ عباراتِ القرآنِ معَ المضمونِ الذي تَسُوّقُهُ: فبعدَ أن أشارَ يوسفُ عليه السلامُ إلى اتجاهِ النّفسِ نحوَ الأمرِ بالسُّوء، ثم أوضَحَ أنَّ هذا الاتجاهَ ليسَ حتمياً بل هو مُحاطٌ برحمةِ الله تعالى للإنسانِ، جاءَتْ صفاتُ الله الحُسْنَى لتكونَ مُتناسقَةً معَ هذا السِياقِ فقال: ﴿إنّ ربّي غفورٌ رحيم﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على شدة جرم الخيانة، وقد حرص يوسف عليه السلام بعدما ظهرت براءته على الملأ، على إيضاح بشاعة جرم الخيانة تنبيهاً للناس إلى أنها من أعظم الجرائم.

٢ - للدلالة على أن النفس أمارة بالسوء، فعلى الإنسان أن يراقبها مراقبة شديدة ويضبطها حتى لا ترديه إلى مزالق السوء، وأن يسأل الله تعالى الرحمة والمعونة، فهو بدون معونة الله تعالى بلا حول ولا طول.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٣]

تصلُ بنا هاتان الآيتان أخي المؤمن إلى بدايةِ مرحلةِ الفَرجِ والتمكين ليوسفَ عليه السلام، حيثُ ستبدأُ معها فصولٌ جديدةٌ من قصةِ يوسفَ عليه السلام، نَرى فيها أَوْجُهاً جديدة مِنْ شخصيتِه ونتعلَّمُ منه الكثيرَ منْ خصائصِ الحُنْكَةِ والإدارة.

وكنا قد وصَلنا معَ الآياتِ السابقة إلى تمامِ إظهارِ براءَتهِ على مشهدٍ من الناس، وقد عرفَ الجميعُ عِفَّتِهِ وأمانته، واستكمَلَ في أذهانِ الخاصةِ والعامة كُلَّ الصفاتِ العاليةِ المُمَيَّزة مِنْ صدقٍ وأمانَةٍ وعلْم وحَزم ودرايةٍ وبُعْدِ نظر، وحسنِ تَدَبُّر، وذكاءٍ وموهبةٍ وتنظيم، وأدركَ الجميعُ أَنه يَحْمِلُ منَ الخَصائصِ والصفاتِ التي تفوقُ خصَائصَ الناسِ العاديين، وهو ما مَيَّزَهُ الله تعالى عَنْهُم به من خصائصِ النبوةِ والرسالة، فكانَ هناك نوعٌ منَ التهيئة العامةِ للقَبولِ به كأحدِ أركانِ المرحلةِ العصيبة المقبلةِ على الناس.

وكانَ أوَّلَ منْ أدركَ هذا هو الملك، فإذا بنا نَسْمَعُه يقولُ كما جاءَ في الآيةِ الكريمة: **﴿وقالَ الملكُ ائتوني به أستَخْلِصُهُ لنفسي﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند تَكْرَارِ المَلِكِ لعبارةِ **﴿ائتوني به﴾** وقد سَمِعْنَاهُ قبلاً يقولُ: **﴿ائتُوني به﴾**.

ولكنَّ الفرقَ شاسعٌ بينَ حالِه في الموقفين:

فحينَ طلبَه أولاً، لم يَكُنْ يعرفُ عنه شيئاً سوى أنه استطاعَ أنْ يُعَبِّر له رُؤيا، واعتبرَ ذلك أمراً غريباً أنْ يَصْدُرَ التعبيرُ عَنْ سجينٍ لا يعرفُ لماذا سُجِنَ، فكانَ الغموضُ يَكْتَنفهُ، وكانَ طلبُه له هو لإزالةِ هذا الغموضِ والتعرُّفِ إليه.

وحينَ طلبَه ثانيةً كانتْ أمورٌ كثيرةٌ قد تَبدَّلَتْ في نظرِ المَلِكْ، إذْ تعرَّفَ خلالَ هذه الفترة إلى قِصّةِ يوسفَ عليه السلام، منذُ وصولِه إلى مصر، وتعَهُّدِ العزيزِ تربيتَه، وقِصةِ المُراودة، وتُهْمَةِ سَجْنِهِ، وثباتِ براءَتهِ: إنه لأَمرٌ مُذهِشٌ أنْ تكتشفُ فجأةً أنَّ رُؤيا في المنام، سَتحْملك على إدراكِ أنَّ أحَدَ الناسِ مسجونٌ ظُلماً وعُدواناً في أحدِ سُجونِك، وقد بدا لكَ أنه زَاهِدٌ في الخروج منَ السجنِ، قبلَ إظهارِ براءَتهِ، هذه الحقائقُ دفَعَتِ الملكَ إلى الإصرارِ على إحضارِه، ولكنْ هذه المرة، بشوقٍ وشَغَف.

ولقد عبَّرَ عن ذلكَ تعبيراً دقيقاً إذْ قال: **﴿أستَخْلِصْهُ لنفسي﴾**.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ الصِيغةِ التي ورَدَ فيها قولُ المَلِك، **﴿وقالَ الملكُ ائتوني به أَستَخلِصْهُ لنفسي﴾**.

فهذه صيغةُ أمرٍ وجَزْم، الأمرُ في قوله: **﴿ائتوني به﴾**. نَفْهَمُ هنا أُسلوبَ الملوكِ في إحضارِ الرعية، ولا غرَابَةَ في هذا، إلا أنه لمَّا عَقَّبَ بقوله: **﴿أَستَخلِصْهُ لنفسي﴾** جاءَ جوابُ الأمرِ بمعانٍ جديدةٍ جديرٌ بنا أَنْ نَقِفَ عِندَها:

فهو بذلكَ يُعَبِّرُ عنْ رُسوخِ المكانةِ التي احتَلَّها يوسفُ عليه السلامُ في قلبهِ وهو لم يَرَهُ بعد.

وهو يُعَبِّرُ عنْ إرادةِ رَفْعِهِ إلى مكانٍ عالٍ، سنعرفُهُ في الآيةِ اللاحقة.

وهو يُعَبِّرُ عنْ حاجةٍ قويةٍ لوجودِ شخصٍ يَحْمِلُ مُواصفاتِ يوسفَ عليه السلام إلى جانبِه.

وهو يؤكِّدُ على إدراكِه دِقَّةَ المرحلةِ المقبلةِ فيما سَيَحُلُّ بمصْرَ منْ أحداث، وقد أوْلى تعبيرَ يوسفَ عليه السلامُ لرؤياه الأَهميةَ البالغة.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عند ما حمَلتْهُ إلينا الآيةُ الكريمةُ منْ وصفِ لِتَطوُّرِ قَناعَةِ الملك، ووصفِ حالهِ النفسيةِ في هذه اللحظات:

فلقد جاءَهُ يوسفُ عليه السلام من بعيدٍ وعَبَّرَ الرسول، بخبرٍ غيبيٍّ عنْ مجيءِ سَبْعِ سنواتِ خِصْبٍ سَتَعُمُّ مِصْر.

ثم حَدَّثَهُ عَنْ خبرٍ غيبي آخر عَنْ سنواتِ قَحْطٍ وجَفَافٍ، وعليه أنْ ينتظِرَ سَبْعَ سنواتٍ معَ جُهْدٍ دَؤوبٍ في الادِّخارِ وحفظِ المُؤن، قبلَ أنْ يَتَحقَّقَ منْ أنّ هذا القَحطَ سيأتي أمْ لا.

وهو لا يَمْلكُ منَ الأدِلّةِ الحِسيَّةِ التي تُؤَكِّدُ صِدْقَ قولِ يوسفَ عليه السلامُ شيئاً، وهو بينَ خِيارين:

إمّا أنْ يُصَدِّقَ، وبالتالي فعليه أنْ يَبْدَأَ بإعمالِ جُهدٍ جبارٍ، وتحريكِ الأُمّةِ بكامِلِها في إطارِ خُطةٍ مَدْرُوسَةٍ شاملة..

وإما ألا يُصَدِّقَ، ولا شيء يُلْزِمُهُ بالتصديق، وقد سَبَقَ وقالَ له العارفون: ﴿أضغاثُ أحلام﴾[1].

هنا نجدُ أثَرَ رَحمةِ الله تعالى بعبادِه حينَ ألْقَى في قَلْبِ الملكِ القَنَاعَةَ الأكيدَةَ بصدقِ يوسفَ عليه السلام، وصوابيةِ تعبيرِه للرُّؤيا ثم جاءَهُ ما يُثبِّتُ جنانه على التصديقِ بأن عَلِمَ من تفاصيلِ قِصَةِ المراودَةِ أنّ يوسفَ عليه السلامُ رجلٌ لا تُحَرِّكُهُ عَواطِفُهُ أو شهواتِهِ وبالتالي، فهو ليسَ بصاحبِ خَيالٍ أو جنوحٍ ومغامرة، وأدْرَكَ أنه يمتلكُ منَ الصفَاتِ الفائقة، حينَ بلَغَهُ ما كانَ منْ صِدْقِهِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٤٤].

وعِلْمِه في تعبيرِ رُؤيا صاحبَيْهِ في السجن، ونحن نعرفُ أنها خَصائصُ النُّبوةِ والرسالة.

لقدِ استجمعَ كُلَّ هذه المُعطيَاتِ وقاسَ ما لدى يوسفَ عليه السلامُ على ما لدى كُلِّ الوُزراءِ والعلماءِ والعارفين مجتمعين، فما دَانَوه. آنها قال: ﴿**أستَخْلِصْهُ لِنفسي**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**فلمّا كَلّمَه قالَ إنكَ اليومَ لدينا مَكينٌ أمين**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تجاوُزِ التفاصيلِ غيرِ الهامةِ في كيفيةِ خُروجِ يوسفَ عليه السلامُ منَ السجنِ، وقد تجاوَزَ كُلَّ ما كان يَمْنَعُهُ منَ الخروجِ مِنْ إصرارٍ على إحقاقِ الحق، وقَد تَمَّ له ما أرَاد.

اللطيفة الثانية: في تَضاعُفِ إعجابِ الملكِ بيوسفَ عليه السلام حين قَابَلَهُ وجْهاً لوجهٍ وكَلَّمَهُ. وكانتْ إشارةً لطيفةً مُعَبِّرةً حين اقتصرَتْ الآيةُ الكريمةُ على كلمة: ﴿**فلمّا كلَّمَهُ**﴾ لاختصارِ حَدَثٍ هامٍّ جداً في حقِّ الناس العاديين: لقد كلّمه الملك، إلا أنه في حقِّ يوسف عليه السلام هو حَدَثٌ لا يبهرُهُ، بل في الحقيقة هو يُشرِّفُ الملك.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ خُلاصَةِ حديثِهما، وفي إيجازِ القرآنِ الكريم معَ وضوحِ العِبارةِ، قمةُ البلاغة: إذْ أنهَى الملكُ حديثَهما بالقولِ: ﴿**إنّكَ اليومَ لدينا مَكِينٌ أمين**﴾.

أي: لقد عَلِمْتُ مكانتَكَ وتَميُّزكَ عنِ الناس.

وعَلِمْتُ أنكَ أفضلُ منْ يُسْدِي إليَّ النُّصْحَ والمَشُورة.

فأصبحتُ بذلكَ في مكانةٍ عاليةٍ في مراتبِ الناس.

وإنكَ معَ هذه المرتبة في أمانٍ منْ تَعَرُّضِ الآخرينَ لك.

وإنك مُتَمَكِّنٌ نافِذُ القولِ.

وإنَّا نَثِقُ بكَ فنُسَميكَ أميناً.

ثم يقولُ الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿**قالَ اجعلنِي على خَزَائنِ الأرض إني حفيظٌ عليم**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ قولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**قال اجعَلْنِي على خزائنِ الأرض**﴾.

هنا أيضاً، نتعرَّفُ إلى جانبٍ آخرَ منْ شَخْصِيَّةِ يوسفَ عليه السلام:

لقدْ قرَّبَهُ الملكُ منذُ لحظات، وقال له: ﴿**إنّكَ اليومَ لدينا مَكِينٌ أمين**﴾. الواحدُ منا يطيرُ فَرَحاً بهذا الإطراء وهذه المرتبة، ويَرْتَبِكُ ويُصيبُهُ الذُّهولُ مع السعادة.

أيُّ نجاحٍ من هذا النَّوعِ يُصيبُ أيَّ إنسانٍ في زَمَانِنا، يُذْهِبُ التّماسُكَ ويَسْتَجْلِبُ الدُّوار، وتختلط غالباً مشاعِرَ الفرح منْ إرباكٍ وشَتَات.

وفي مثلِ هذه الظروف، يتوقَّفُ المُكرَّمُ عنْ أيِّ مَطْلَبٍ أو مَسأَلَة، بلْ ينتظِرُ سَماعَ المطالِبِ منَ المُكَرِّمِ لتنفيذِها.

أمّا يوسفُ عليه السلام، فما تَوانَى لحظةً عنِ المُضِيِّ قُدماً في الصعودِ، لا لمطلبٍ ذاتي أو دُنيوي، فلقدْ رَفَعَهُ الله تعالى فوقَ كُلِّ هذه الاعتبارات، ولقد كانَ عزيزاً كريماً مُحسناً حتى في غَيابَاتِ الجُبّ، حتى في خِدْمَةِ العزيز، حتى في ظُلماتِ السِجن، ولنْ يَزِيدَهُ تقرُّبُ الملك منه عِزاً أو شَرَفاً.

بل لإنفاذِ أمرِ الله تعالى برفعِه ليكونَ لنا في قصتهِ عِظةٌ وعِبرة، لنعلمَ أنّ كلَّ شيءٍ بقضاء، وأنه تعالى يُعِزُّ منْ يشاءُ ويُذِلُّ منْ يشاء، بيدِه الخير وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

فقال بكُلِّ حزمٍ وتصميم: **﴿اجْعَلنِي على خزائنِ الأرض إنّي حفيظٌ عليم﴾**.

اللطيفة الثانية: بلاغية، وذلك في جماليةِ الصورةِ التي ساقَتها إلينا الآيةُ الكريمةُ ونحن نَسمع: **﴿اجْعَلني على خزائنِ الأرض﴾**، ونحن نتصوَّرُ معنى خزائنِ الأرض: الأموالَ والثمارَ والغِلالَ والمواردَ والحَصَاد والزروعَ والمُؤَن، والمستودَعَاتِ والمُسْتَوعَبات والأهراءاتِ والأطيان وحاجَاتِ العباد... إخْتصَرتَها الآيةُ بقولِ الله تعالى: **﴿خزائنِ الأرض﴾**.

اللطيفة الثالثة في ما أورَدَتْهُ الآيةُ الكريمةُ منَ الصفاتِ الجديدة التي نَعْلَمها تصريحاً هذه المرة، وليس تلميحاً أو إشارةً في يوسفَ عليه السلام: **﴿إني حفيظٌ عليم﴾**.

للمرةِ الأولى، منذُ بدايةِ القِصة، يتكلَّمُ يوسفُ عنْ نَفسِه، ليتحدَّثَ عنْ صفاتِهِ، ولقدِ استوجَبَ الموقفُ الذي هو فيه هذه اللحظة، أنْ يتكلَّمُ عن هذه الصفات:

فهو في مَعرِضِ إقناعِ الملكِ بتوليتِهِ خزائنَ الأرض.

ولقد طلبَ مطلباً عظيماً دُفعةً واحدة، دونَ المرورِ بمراحلِ الدرجاتِ والرُّتبَ.

وهو يعلمُ أنه بذلك يَضَعُ نفسَه في أَدَقِ مَنْصِبِ وأصْعَبِ مُهمّة.

وهذا الأمرُ يستوجبُ صِفتين أساسيتين: العِلمَ والتدبير.

فلهذا قال: **﴿إني حفيظٌ عليم﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب اقتناص الفرص حين تبدو حاضرة، وعدم تأجيل الإفادة منها إذا ما توفرت الأهلية لذلك، ويوسف عليه السلام يعلمنا أن نضع الرجل المناسب في المكان المناسب وليس للرجل المناسب أن يستنكف عن شغل المنصب، لأنه حال استنكافه، سيملاءه آخر قد لا يكون كفواً.

٢ - للدلالة على أن الأمانة هي أعلى صفة ينبغي أن تتوفر في الأجير أو العامل أو الموظف. فحين رأى الملك من يوسف توفر الصفات الحميدة مجتمعة، اختار صفة الأمين ليبوئه بموجبها أعلى مكانة، وكانت صفة الأمين هي الصفة الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قبل بدء البعثة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٤]

تَصِفُ لنا هاتان الآيتان، أخي المؤمن واقعَ حالَ يوسفَ عليه السلام في هذه المرحلةِ الجديدةِ منْ حياتِه وقد رَفَعَهُ الله تعالى إلى أَعلى مكانةٍ في الدنيا، فلنتأملهما برَوِيَّة، لنستَخْلِصَ منهما ما يُيَسِّرُ الله تعالى لنا مِنَ العِبر والعِظات.

يقولُ الله تعالى: **﴿وكذلك مَكّنّا ليوسفَ في الأرض﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدَّة:

اللطيفة الأولى: في قولهِ تعالى: **﴿وكذلك﴾**.

وفي هذه الكلمة، إشارةٌ لطيفةٌ إلى تتابُعِ الأحداثِ حتى وصلتْ إلى هذه

الغايةِ المَرْجُوَّة، ففي رَبطِ ما سَلَفَ منْ أحداثٍ معَ ما سيَلْحَقُ، حمَلٌ للقارىءِ والمستمعِ على الشعورِ بالترابُطِ المتينِ من كُلِّ مشاهِدِ القِصة.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا على جَمَاليَّةِ الصورة التي تُعطِينا إيّاها عبارة: **﴿مَكَّنَّا ليوسفَ في الأرض﴾** فهي غنيةٌ جداً بالمعاني.

وأصلَ كلمةِ التَمْكِين: جعَلْنا له مكاناً، والمقصُود بها: أصْبَحَ له مُوْطِأَ قَدَمٍ راسخٍ في الأرض.

ونحنُ حين نَسمَعُ القرآنَ الكريمَ يَتحدَّثُ عن تمكينِ الله تعالى ليوسفَ في الأرض، والله تعالى هو الخَالِقُ البارىءُ المصَوِّر المقدر المانِح، نُدْرِكُ أننا أمامَ واقعةٍ بالغةِ الأهمية:

فليسَ الملكُ هو الذي مكّنَّ ليوسفَ في الأرض، بلِ الله القادرُ القَهَّار، وما قَرارُ الملكِ بتسليمِ زِمامِ الأمورِ إلى يوسفَ عليه السلام، إلا بتقديرٍ منَ الله تعالى، والله تعالى يجعلُ الأسبابَ لِنفَاذِ أمْرِه..

وإذا مكّنَ الله تعالى ليوسفَ في الأرض، فقد جَعلَهُ من عِنايتِه ورِعايتِه وحِفْظِه وتوجيهِه في كيفيةِ إدارةِ الأُمور. هنا يتفوقُ يوسفُ عليه السلام على بشريتِه وعلى بقيةِ البَشَر، لأنه يُؤدِّي المهمةَ التي أَوْكَلَهُ الله تعالى بها في حفظِ النفوسِ خلالَ السنواتِ المِحنة، وهي لا تُترَكُ دونَ توجيهٍ إلهي، وإلهامٍ ربّانيّ.

وحينَ نحاولُ فَهْمَ معنى **﴿وكذلك مَكّنّا ليوسفَ في الأرض﴾** نجدُ الكثيرَ منَ المعاني التي تَرِدُ إلى الذِّهن:

فهي تَعْنِي أنه أصبحَ صاحبَ القولِ النافِذ، الذي يأمُرُ فيُطاع، يُشيرُ فَيُلَبى، يُصْدِرُ الاحكامَ فلا يُراجَعُ فيها.

وهي تعني الضَّمانَ بالاستقرارِ في الحُكْم، معَ وَفْرِ الطُّمأنينةِ في القلب، بأنّ هذا التمكينَ ليس رهناً بأهواءِ البَشر.

وهي تعني أنه أصبحَ صَاحِبَ جاهٍ وسلطانٍ، لا يتلقّى الأوامرَ من أحدٍ منَ الناسِ، ولا حتى المَلك الذي تخلّى عنْ إدارةِ المِحنةِ، وترَكَ الأمرَ ليوسفَ عليه السلام، يتحمَّلُ كاملَ المسؤولية.

وهي تعني أنه أصبحَ حقيقةً هو الحاكمَ الفِعْليَّ لِمصر، وليسَ فقط لِمصر، بل لكُلِّ الدنيا، إذْ سنرَى أنَّ كُلّ الأقطارِ ستأتي إلى مِصْرَ لِتأخُذَ منها المُؤَنَ والغِذاء.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿يتبوّأ منها حيث يشاء﴾.

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند التفصيلِ الذي يَبدُو في ظاهرِ الحالِ غيْرَ أساسي في وَصْفِ صلاحياتِ يوسفَ عليه السلام، إلا أنه في الحقيقةِ يَحمِّل دلالةً بالغةَ الأهمية، نتَوَقَّفُ عندَها قليلاً:

كثيرٌ منَ الملوكِ والحُكَّام، يَحْكُمونَ في قصورِهم، ومنْ قُصورِهم، ولا يتجاوزُونَ أبوابَها إلا في المناسبات.

في كثيرٍ منَ الأحيان، تَضعُفُ سُلْطَةُ هؤلاءِ الملوك، فيَحْكُمُ عَنهُم غيرُهم باسْمِهم، ويبْقَونَ في الحُكمِ صورةً دونَ فعاليّةٍ، وغالباً ما يعلمون هذه الحقيقة، يَرْضَونَ بها لِضَعْفِهِم وقِلّةِ حِيلتِهِم.

وعلاماتُ فعاليّةِ الحُكم، ليس فقط إعطاءَ الأوامرِ أو مظاهرَ الحُكْمِ والرفاهية، بل أهمُّ علاماتِ الحُكْم هو الحضورُ الفَاعِلُ على الأرض، أنْ يَنْزِلَ الحاكِمُ إلى الشارعِ بينَ الناس، مع الناس، ويستشعرَ وُجودَه بينَهم، في اجتماعاتِهم وأحادِيثهم في مُنتَدَياتِهم ومَنازِلِهم، أنْ يَنفُذَ سُلْطَانُه إلى أصغرِ بيتٍ فيهم، أنْ يكونَ كثيرَ الحضورِ كثيرَ التنقل، سَهْلَ التنقُّل، يُؤبَهُ له، يتَوَقَّعُ حضورُه في أيِّ وقت.

ولذلك جاءَت الآيةُ الكريمةُ بالغةَ الدقة، إذْ أوردتْ: ﴿**يتبوّأُ منها حيثُ يشاء**﴾.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا أنّ الصفةَ التي أعطاها الله تعالى في هذا الشطرِ منَ الآية ليوسفَ عليه السلام، تُكَمّلُ ما حبَاهُ بِهِ منْ صفاتٍ ساميةٍ لإدارةِ سنوات المحنةِ.

فمِنَ المعلومِ أنّ مَرْكَزِيّةَ الحُكْمِ تُقَوّي مَرْكَزَ الدولةِ، وتُضْعِفُ باقي الأقاليم التي قد يَشْعُرُ أهلُها أنهم دونَ مستوى الاهتمامِ المطلوب، مما يُشَجّعُ حدوثَ هجراتٍ منَ الأقاليمِ إلى المركز، أمّا إذا كانتِ الإدارةُ الحاكمةُ أقلَّ مركزية، وتثبتُ حضوراً ثابتاً ومؤكداً في الأقاليم، فإنّ هذا الأمرَ يُنْعِشُ الأقاليم، ويَحْمِلُ أهلَها على القرارِ فيها وإنعاشِها.

فجاءَت الالتفاتةُ اللطيفةُ في الآيةِ الكريمة، لِتُشيرَ إلى أنّ يوسفَ عليه السلام، انتهجَ مَنْهَجَ الحركةِ في حُكمِهِ لا مَنْهَجَ الثباتِ والرُّكُون. . .

وجاءَ قولُ الله تعالى: ﴿**يَتبوّأُ منها حيثُ يشاء**﴾ للإشارةِ إلى وُصولِ سُلْطَانِه إلى أرجَاءِ مِصْر، وإلى حركتِه وتَنَقُّلِهِ بشخصِه في هذه الأرجاء.

اللطيفة الثالثة: في جَماليةِ الصورةِ التي تُعطِيها كلمةُ ﴿**يَتبوّأُ**﴾ فهي تأتي مُنْسَجِمَةً انسجاماً تاماً معَ حديثِ الفَضْلِ والرفعة التي اخْتَصَّ بها الله تعالى يوسفَ عليه السلام، ونَفْهَمُ منها العلوَ والسُؤدَد، وهي أَبْلَغُ معنى مِنْ قولِنا مثلاً: يَنْزِلُ أو يتنقِلُ أو يَجُولُ.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا منْ نشاء ولا نُضِيعُ أجرَ المُحْسنين**﴾.

وفي هذه إشارةٌ إلى أمرين اثنين:

الأمرُ الأول: هو أنّ الله تعالى قد جعَلَ كُلَّ شيءٍ بِقَدَر، حتى توزيعُ المَهامِّ والمناصبِ والدّرَجاتِ في هذه الدنيا، كُلُّها بِقَدَر، حتى توزيعُ الأرزاقِ والمِنحِ والعَطَاءِ كُلُّها بِقَدر.

لكنّ هذا لا يَعني تَفْضِيلَ منْ وَسّعَ الله تعالى عليه بالرزق على مَنْ قَدَرَ عليه رِزْقَه، بل في كلا الحالين هو إبتلاءٌ في حقِّ عامةِ الناس، لذلك يأتي الشطرُ الأخيرُ منَ الآية، مباشرةً ليوضِحَ دورَ الإنسانِ هنا، إذْ نقرأ: ﴿**ولا نُضِيعُ أجْرَ المُحسنين**﴾.

وهذا يعني أنّ الله تعالى، إذْ قَدَّرَ المراتبَ والأرزاقَ، ترَكَ لكلِّ واحدٍ خيارَ العمل، فلِئنْ أحْسَنَ فيما وضَعَ بينَ يديه، فلقد نَجح وأفْلَحَ، ولئن أساءَ فقد أساءَ لنفسِه.

الأمر الثاني: هو أن هذه القاعدةُ تَسْرِي على كلِّ الناسِ في الحياةِ الدنيا، سواءٌ مَنْ آمنَ منهم وحَسُنَ إيمانُه، أمْ لَمْ يُؤمِن، مثَلُها في ذلك، كمثَلِ قواعدِ الكيمياءِ والفِيزياءِ وغَلَبةِ القوةِ عندَ انعدامِ النُّصرةِ الإلهية، وأبلَغُ مِثالٍ على ذلك، مكافأةُ العُلماءِ والمُخترعين، والباحثين، بالكشوفِ العِلميّةِ التي تؤدّي إلى اليُسر والرّخاءِ في تسهيلِ مجرياتِ الحياةِ الدنيا مِنْ طائراتٍ وسيّاراتٍ وحَواسِبَ وسِواها، حتى ولو جَرتْ هذه الكشوفُ على أيدي غيرِ المؤمنين، فلهُم الجَزاءُ في الدنيا على ما بَذَلُوه مِنْ جُهود.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**ولأَجْرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتَّقُون**﴾.

ولقد ورَدَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ مباشرةً بعدَ آيةِ جَزاءِ المُحسنين، لتكونَ تعقيباً واستثناءً.

فبعدَ أنْ أوضحتْ لنا الآيةُ الأولى أنّ الله تعالى لا يُضِيعُ أجرَ المُحسنينَ بالمطلق، جاءتْ هذه الآيةُ لِتُوضِحَ أنّ الجزاءَ في الآخرةِ أفْضَلُ وأعَمُّ وأشمل، لكنه لا يصيبُ إلا الذين آمنوا وكانوا يتقُّون. أما الذين لم يُؤمِنوا، فلقد استوْفَوا أُجُورَهم في دُنياهُم، وأخذُوا نَصِيبَهُمُ العادِلَ لقاءَ جُهودهم، وكم هي ضحلةٌ ضئيلةٌ مكاسبُ الدُّنيا أمامَ أجرَ الآخرة.

ونحنُ نسمعُ في القرآن الكريم آياتٍ بيناتٍ في حَقِّ هؤلاء، إذْ يقولُ الله تعالى في سورةِ الأحقاف، الآيةِ العشرين: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: **﴿ويومَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُوا على النَّارِ أذْهَبْتُم طَيِّباتِكُم في حياتِكُم الدُّنيا واستَمَعْتُم بها، فاليومَ تُجْزَونَ عذابَ الهُونِ بما كنتُم تَستَكْبِرُون في الأرضِ بغير الحقِّ وبما كُنتم تَفسُقُون﴾**.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الحاكم العادل الصالح يجب أن يكون قريباً من رعيته، أن يعيش مع الناس همومهم وأحزانهم، أن ينزل إليهم ويخالطهم ويسمع شكواهم بنفسه، أن يزور كل مناطق حكمه ولا يقتصر على مركز حكمه.

٢ - للدلالة على أن الحاكم العادل لا يخاف الناس بل يأمن لهم ويشعر بالطمأنينة بينهم، فينزل إليهم ويشعر نفسه واحداً منهم. ، من هنا ينطبق عليه قول الله تعالى: يتبوأ منها حيث يشاء.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٥]

تنقُلُنا هذه الآيةُ أخي المؤمن نَقلةً سريعةً إلى مرحلةٍ جديدةٍ ومشهدٍ جديد مع تجَاوُزٍ سريعٍ وواسعٍ للأحداثِ، دونَ أن يَشْعُرَ القارىءُ والمستمعُ بصعوبةٍ في المتابعةِ والتركيز، ذلكَ لأنه كانَ قد تحضر معَ ما اختزنه من معلومةٍ من الآياتِ السابقة.

وإذا ما أرَدْنا ذِكْرَ ما حصَلَ منْ أحداثٍ بينَ الآيةِ السابقة، والآيةِ الحاضرة نفهمُ المجرياتِ التالية:

فلقَدْ استقَرَّ المَقَامُ بيوسفَ عليه السلام، على عرش مِصْر وتركَهُ الملكُ ليديرَ شؤونَ الناس، ويَنْظُرَ في صالحِهم.

وأنه أعملَ خُطتَه الاقتصاديةَ المُتكاملة فحضَّ الناسَ على الإكثارِ منَ الزَّرْع، فجمَعَ المؤَنَ والأغذيةَ في مستودعاتِه المركزية لضبطِ الصَّرفِ والاستهلاكِ.

ومنَعَ الناسَ مِنَ الإسرافِ حتى في سنواتِ الخِصْب، ولم يعطِهِم إلا القليلَ، رُغمَ ما يَرونَهُ منَ الخيراتِ الدّافقةِ منْ بطنِ الأرض.

وأنه قد مرَّ بعدَ ذلكَ زَمنُ الخِصْب، وانقضَتِ السنواتُ السبع، وبدأَتْ بعدها سنواتُ الجَدْبِ والقَحْط.

وأنه بدأ التوزيعُ على الناسِ بمقاديرَ محسوبة، تَسْتوجِبُ صَبْراً ودِقةً وضَبْطاً وتنظيماً فائقاً.

وأنّ الجَدْبَ طالَ كُلَّ الأرض، وليسَ مِصْرَ وَحْدَها، فأصَابَ الناسَ في كلِّ أقطارِ الأرض، الضيقُ والإحصار.

وأنه وصَلَ خبرُ المُؤنِ المُختَزَنةِ في مستودعاتِ عزيزِ مِصْرَ إلى هذه الأقطار، أوصَلَها إليها حاجةُ الناسِ إلى الطّعام، وهذه الأخبارُ تَخترِقُ الصعوباتِ والمسافاتِ، ولا تَنتظِرُ وسائلَ اتصالٍ مُتقَدِّمَةٍ مُيَسّرة وإرسالَ العُيونِ في الأمصار، وتواصلُ الإنسانِ مع أخيه الإنسانِ مستمرٌ منذ أن انتشَرَ البشرُ في أرجاءِ الأرضِ واستعمرُوها.

ومن بين هذه الأقطار أرضُ كنعان، حيثُ يعقوبُ عليه السلامُ وبَنُوه وقد أصابَهُم ما أصابَ الناس..

فانطلقَ الإخوةُ باتجاه أرضِ مِصْر، وما كانوا لِيُفَكِّرُوا بِقَصْدِها لولا هذه الحاجة، التي قدرَّها الله تعالى عليهم لِحَمْلِهم على الاتجاهِ نحوَ يوسفَ عليه السلام إنفاذاً لوعدِه تعالى، وتحقيقاً لقضائه.

وأنّهم وصلُوا إلى مصرَ حيثُ اجتمعتْ أممٌ وخلائقُ يطلبُون الغذاءَ والقُوت.

إلى هنا، أوصلتنا الآيةُ الكريمة لنبدأ معها متأمِّلين.

يقولُ الله تعالى: **﴿وجاء إخوةُ يوسفَ فدَخَلُوا عليه فعرفَهم وهم لهُ مُنكِرون﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ قولِه تعالى: **﴿وجاءَ إخوةُ يوسف﴾**.

والآيةُ لم تَذْكُرْ عددهم، ولا ما إذا كانَ أخوهُ الأصغرُ معهم، وذلك لإعمالِ أُسلوبِ التشويق، لأننا سنعرِفُ في الآيةِ اللاحقة، أنه لم يَحْضُر معهم، فلم يَرِدْ ذِكرُه في هذه الآية منعاً منَ التّكرار.

ونحن لم نَسمع ما دارَ بينَ يعقوبَ عليه السلام، وأبنائه قبلَ أنْ يُغادِرُوا إلى مصر، وهنا أيضاً بلاغةٌ قرآنيةٌ عالية، لأننا في لاحقِ الآيات سنعلَمُ أنّ حواراً طويلاً سيدُورُ بينهم، والقرآنُ الكريمُ يتجاوزُ الحَدَث التّلقَائِيّ ويتوقَّفُ عندَ الحَدَث المِفْصَلِيّ.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لقولِه تعالى: **﴿فدَخَلُوا عليه﴾**.

لقدِ اعتدْنا في أيامِنا الحالية أن يكونَ الحاكِمُ بعيداً جداً عن مرأى الناس،

لا يَرَونَهُ إلا في المناسبات، أو في وسائلِ الإعلامِ المرئية، وإذا حصَل وكانَ هناك حدثٌ يستَوجِبُ اجتماعَ الناسِ، للعطاءِ أو الإحصاءِ، فهم لا يَرَونَهُ البَتَّة بل يَرَونَ بعضَ أطرافِ الحاشيةِ غير المُقرّبين، وفي مثلِ واقعِ مصرَ معَ يوسفَ عليهِ السلام، ومعَ هذه الأعدادِ الكبيرةِ المتوافِدَةِ من كُلِّ الجهات، منطقي ألا نَرى يوسفَ عليه السلام بينَ الجموع، وله أنْ يُديرَ تنظيمَ العملِ من بعيد، ومَنْصِبُه يسمحُ له ألا يَنْزِلَ إلى أرضِ التوزيع، حيث الهَرْجُ والمَرْجُ ولرُبما التدافُعُ والزِّحام، خصوصاً أنّ مسألة التوزيعِ ممتدةٌ على مدى أشهرٍ وسنين.

إلا أنّ يوسفَ عليه السلام، تحقيقاً لمبدأ الدِّقة والأمانة، كان حاضراً للإشرافِ شخصياً على الكَيْلِ والعطاء، ويستطيعُ بذلك أنْ يُرَاقِبَ عَدَالَة التوزيعِ، ويُضْفِي بحضورِه أجواءَ الانضباط، يُثْبِتَ قولَ الله تعالى فيه حينَ قالَ عَن نفسه: ﴿وإني حفيظٌ عليم﴾.

اللطيفة الثالثة: في استمرارِ تأمُّلِنا لقولِ الله تعالى: ﴿**فدخلُوا عليه**﴾.

وهذا يعني أنه حصَلَ لقاءٌ مباشِرٌ معَ مُواجهةٍ في موقعٍ واحد، وهذا في حَقِّ الناسِ منَ الأمورِ التي يَصْعُبُ حُصولُها:

فحينَ يكونُ المُقَامُ مُتسِعاً لحركةٍ كثيفةٍ منْ ذهابِ الناسِ وإيابِهم، وحينَ يكونُ ممتداً على مدى الأيامِ والأشهرِ والسِنين، لا تَستطيعُ العينُ حَصْرَ كلِّ هؤلاءِ الناس، وأبلغُ مِثالٍ على ذلك، ما يَحصُلُ في أيامِنا الحاضرة، أيامَ الحَجّ حيثُ كما هو معروف في أماكنِ الاكتظاظِ والزِّحام، إذا ما انقطَعَ بصَرُكَ عنْ شخصٍ تتابعُه، لحظةً واحدةً فقط، إختفَى عنْ نَاظِرَيْكَ واستحالَ عليكَ مُتَابعتُه.

وفي قوله تعالى: ﴿**فدخلُوا عليه**﴾ إشارةٌ إلى حصولِ اجتماعِهِ بهم بأمرٍ منَ الله تعالى وتقديرِه، وأنه لا مكان للمصادَفَةِ في ترتيبِ اللقاء، وذاك أنه أمْرٌ مُرْهِقٌ جداً، أنْ تستعرِضَ كلَّ القَادِمين، منْ كُلِّ البلاد، في كُلِّ الأوقاتِ على مَرِّ

الأيام، لكنّ الله تعالى شاءَ أنْ يَجْمَعَ يوسفَ عليه السلام بإخوتِه بعدَ طولِ انقطاع.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿**فعَرَفَهُم**﴾.

وأسبابُ معرفتِه لهم كثيرة:

فهم حينَ ألقَوهُ في غيابة الجُبِّ، كانوا كباراً بالغين على ما ساقَ الرُّواةُ والمفسرون، وملامحُ وَجهِ البالغِ لا تتغيَّرُ إلا قليلاً على مرِّ الزمان..

وهم جاؤوه عشَرَة، فحتى لو اختلفَتْ عليه ملامحُ بَعضِهم، فإنَّ العلاماتِ الفارقَةَ بعضُها يُقَوِّي بعضاً.

وهو في الحقيقةِ يَنْتَظِرُهم تحقيقاً لوعدِ الله تعالى له بأنه سيجمَعُهُ بهم حينَ نسمَعُ في الآياتِ السابقة، ﴿**وأوحَينا إليه لتُنبئنهُم بأمرِهم هذا وهم لا يَشعُرون**﴾(١).

وأهمُّ من ذلك كُلِّه، أنّ الله تعالى أرشَدَهُ إليهم، ومَنْ يهدِ الله فهو المهتد.

اللطيفة الخامسة: في قولِه تعالى: ﴿**وهم له مُنكِرون**﴾.

لقد عرَفَهُم يوسفُ عليه السلام، وعرَفَ أنهم جَاؤوا دونَ شقيقهِ الأصغر، ولقد نظرَ إليهم ونظرُوا إليه، فلم يَعْرِفُوه وأسبابُ عدمِ معرفتِهم له كثيرة:

فلقد كان صغيراً حين ألقوه في غياباتِ الجب، وملامحُ الطِفْلِ تتَغيَّر حين يَكْبُرُ.

وهو في عُرْفِهِم مجهولُ المصير فمُسْتَبْعَدٌ في ذهنِهم أن يكون هنا في مصر.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ١٥].

وأبَّهَةُ الملكِ تحجُبُ إمكانيةَ القياسِ على أخيهم، وهم عَرفوا حتماً أنّ اسمه يوسفَ، إذْ بقي اسمُه كذلك حتى في الحِقْبَة المصريةِ منْ حياتِه..

والمنطقُ لديهم لا يسْمَحُ لعقولهم بالذَّهابِ للتفكيرِ في أن يكون أخاهُم يوسفَ الذي تَركُوه في الفلاةِ عُرضَةً للذئاب، أو القوافلِ في أحسنِ تقدير هو هذا العزيزُ الذي هم في حضْرَتِهِ.

وقبلَ أن نُنهي تأمُّلِنا في هذه الآية، نتوقَّفُ قليلاً عندَ الحالِ النفسيةِ ليوسفَ عليه السلام، في هذا الموقف:

فلقد أساؤوا إليه أشَدَّ الإساءةِ حينَ ائتمرُوا به، ونفَّذُوا خُطَّتَهُم بإبعادِه عن أبيه، وتخَلِّيهم عنه في أشدِّ حالاتِ ضَعْفِهِ، وتركِهِ عُرضةً للموت..

ثم قاسى ما قاسى من مرارةِ الفراقِ وألم البِعاد عن أبيه، وتعاقُبِ الأحداثِ عليه، إذْ سُجِنَ في سُجونِ مصر، بينما هُم كانوا يَنْعَمُونَ بالحريةِ في أرض كَنعان.

وهو الآنَ في موقعِ القَوِيّ المتمكِّن، بينما همُ في موقعِ الضّعفِ والطّلبْ ويستطيعُ بسهولةٍ أن يَقْتَصّ منهم لما فعلُوه معه في صِغرِه.

والتصرُّفُ العادِيُّ للناس، يَسْمَحُ لنا أن نقْبلَ منه أن يتصرَّفَ معهم تصرُّفاً في أقلِّ التقدير عادلاً، كأن يُذِيقَهُم بعضَ ما قاسَى منْ مرارةٍ في ظُلمَةِ الجُبّ، ووحدةِ السِّجن، لا للانتقام، بل للتأديبِ، وإفهام مدى القسوةِ التي عاملُوه بها.

إلا أنّ يوسفَ عليه السلام سيكونُ له معهم تصرفٌ آخر وبُعْدٌ آخرُ في شخصيتهِ نتعرَّفُ إليه في لاحقِ الآيات.

* * *

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن ملامح الإنسان تتغير مع الزمن، خصوصاً إذا كانت آخر رؤيتنا له منذ أن كان حدثاً يافعاً، وأغلب السبب في حصول التغير هو بنمو الجيوب الهوائية في الوجه، خصوصاً الجيوب الجبهوية التي تتحكم بعرض الجبهة واتساع محجر العين، والجيوب الأنفية التي تتحكم بشكل الأنف وحال الخدين.

٢ - للدلالة على أن صفة الشخص ومهام عمله تطغى على دلالات اسمه: فلئن عرفنا شخصاً اسمه زيد مثلاً يعمل خادماً، ثم عرفنا بعد حين أن مديراً عاماً اسمه زيد، فلا يدفعنا انطباق الأسماء على إجراء مقاربة بينهما.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٦]

نبدأ مع هذه الآية، أخي المؤمن، تأمُّلنا في الحوارِ الذي جَرى بينَ يوسف عليه السلامُ وإخوتِه في لقائهم الأول، بعد فِراقٍ دامَ سنواتٍ طويلة، يقولُ بعض المفسرين: إنها دامتْ عشرينَ عاماً، والله تعالى أعلم، تغَيَّرتْ خلالَها المُعطيات كلُّها، وانقلبت الأُمُور رأساً على عَقِب، رفَعَ الله تعالى فيها يوسفَ عليه السلام إلى أعلى مقامٍ في الدنيا، وصارَ مقْصِدَ العالَمين، وها هُمْ أولاءِ إخوتُه في حضْرتِه، هو يَعرِفُهم وهم لا يعْرِفُونه، هُمْ يطْلُبونَ العطاءَ، وهو يمْلِكُ المؤَنَ والكلأ، وله السلطةُ والجاه، وله أنْ يُعْطِيَ أو يَمْنَع عمّنْ يُريد، ونحن نعْرِفُ أنهم آذوه وأساؤوا إليه، وتسبّبُوا في غُربتِه وبُعَادِه عنْ أبيه. ولو شاءَ أنْ يقتصَّ مِنهُمْ عدْلاً وحَقاً لأمْكَنَ له ذلك، دُونَما مُراجِعٍ أو مُعَقِّب.

فلْنُتابعْ معاً فُصولَ هذا اللقاء، في هذه الآياتِ مَوْضِعِ تأمُّلِنا اليوم، وسنَجِدُ فيها الكثيرَ مِنَ الصفاتِ العاليةِ الرفيعة، التي حباهُ الله تعالى بها.

يقولُ الله تعالى: ﴿ولمَّا جَهَّزَهم بِجهازِهم قال ائتُوني بأخٍ لكُمْ مِنْ أبيكم﴾

في هذا الشَطْر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وُقوفنا عندَ قولِه تعالى: **﴿ولمّا جَهَّزَهُم بِجَهازِهم﴾** فنَرى أنْ يوسفَ عليه السلام، بَنَى خُطَّةً مُحْكَمَة الدِقة، بعيدة الآفاقِ والمرامي، وذلك منذ أنْ دَخَلُوا عليه وعرفَهم، وهُمْ له مُنْكِرون، ثم إنه قَامَ بتنفيذِها عملياً بصمتٍ، وإتقان، دونَ ضجيجٍ أو تصريحٍ أو تلميح، وهو يُعَلِّمُنا بتصرُّفه الحكيم هذا، كيفيةَ التّعامُلِ معَ الأحداث، ولنا في أنبياء الله تعالى، كُلُّ العِظَةِ والعِبْرة.

فنتعَلَّمُ مِنْ يُوسفَ عليه السلام:

أنه ينبغي لنا أَنْ نكونَ أقَلّ انفعالاً وتأثُراً بظاهرِ الأحداث، ونُقْبِلَ على الوقائعِ برويّةٍ وهُدوء. وأَنْ نَدْرُس المُعْطياتِ بجِدِّيَّةٍ وتعَقُّل، قبلَ الإقدامِ على التعامُلِ معَ هذه الأحداث.

ونتعَلَّمُ منه أنْ نكونَ أكْثَر صَمتاً، وأقَلَّ ضوضاءَ وجَلَبَة، وبالمقابل أن يكونَ التصرُّفُ العَمليُّ على الأرض، هو رائِدَنا، وليس الضَجيجَ الإعلامي.

ونَتعلَّمُ منه بُعْدَ النظر، وإحكامَ التنظيم، وعدمَ التصريحِ عَنْ تفاصِيلِ العمل، قبلَ استكمالِ الإعدادِ له.

ونتعلّمُ منه عدَم حرْقِ المراحلِ لإرضاءِ العواطف، إذ إنَّ الأخطاءَ تكْثُرُ عندَ هِياجِ العَاطِفة، فتَعْمَى البصائرُ والأبصار.

فماذا فعلَ يوسفُ عليه السلام؟

لقد أحسنَ استقبالَهم، ولم يُفصِحْ لهُمْ عَنْ نفسِه، ولم يُعْطِهم أيةَ إشارةٍ تُذَكِّرُهم به، ثم إنه قَبِلَ مِنهُمْ بِضاعَتِهِمْ كما كُلِّ الناس، ولم يَجْعلْ لهم على الناسِ مِيْزَةً تَدْفَعُهم للتَّساؤلِ عَنْ سَببِ هذا التمييز، وهذه حنكةٌ بالغة، تقتضي ذكاءً عالياً، ومغالبةً لحنين الدم والأخوة في رباطة جأشٍ وقُدرةِ تحكُّمٍ عالٍ بالعواطف.

ثم إنه بعدَ ذلك، جَهَّزَهُمْ بجهَازِهِم، أي أعطاهُمْ ما يُقابِلُ ما أحْضَرُوه مِنَ الغذاءِ والمُؤَن، إلا أنه هنا زادَهُم بشيءٍ قليلٍ، على ما سنرَى في الشَّطْرِ الثاني مِنْ هذه الآيةِ بقوله: ﴿**أَلا تَرَوْنَ أنّي أُوفي الكيل**﴾ لحاجةِ اكتمالِ الخُطةِ إلى هذا الإيفاء.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ التَسَلْسُلِ الحاصلِ في تنفيذِ الخُطة: لقد قامَ يوسفُ عليه السلامُ بتحضيرِ إخوتِه نفسياً، للوصولِ إلى المرحلةِ الثانيةِ من الخُطة، حينَ استَدْرَجَهُمْ للحديثِ عنْ أخيهِ الصغير، وذِكْرِهم له، بما أُوتيَ مِنْ أسلوبِ الكلام، خُصوصاً وهُمْ يَرَوْنَ كَرَمَ العزيزِ وهو يَمْلأُ أوعيتهم بالمؤَنِ، ولسانُ حالِه كما التالي:

لقد أتَيتُمْ دُونَ أخي الصغير، وأنا أعرِفُ بوجودِه، وأنتم لا تَعْرِفُونَ أنّي أعرفُ بوجودِه، ولكي أسأَلَكُمْ عنه، يجبُ أنْ تُخْبِروني أنتم بوجودِه، ولا يجبُ أنْ يكونَ الدافِعُ لِحَمْلِكُم على إخباري عَنْ وُجودِه مُلفِتاً، لكي لا يُعْرَفُ أني أعرِفُ بوجودِه.

والحقيقةُ أنّ الله تعالى، هيّأ ليوسفَ عليه السلام مِنْ أسلوبِ الكلامِ في السؤالِ والاستفهام، ما حَمَلَهُمْ على الحديثِ عَنْ أَخيهِ الصغير، دونَ انتباهٍ منهم، فيكونُ بذلكَ قد أنهى المرحلةَ الأُولى منْ خُطتِه، وانتقَل بعدَها مُباشرةً إلى المرحلةِ الثانية.

يقولُ الله تعالى: ﴿قال ائتوني بأخٍ لكُمْ مِنْ أبيكم﴾.

وهنا أيضاً، لطيفةٌ جميلة، في وُقوفِنا عندَ دِقةِ الأسلوبِ اللُّغويِّ الذي استَعْمَلَهُ يوسفُ عليه السلام، في مخاطبتِه إخوتَه:

لقد أنهى تجهيزَهم، وهُمْ على أُهْبةِ المُغادرة، وظَنُّوا أنّ اللقاءَ قدِ انتهَى بحصُولِهم غَانِمينَ على المُؤَنِ والغِذاء، وظَنُّوا أنَّ ما دَارَ بينَهم وبينَ العزيز، إنَّ هُوَ إلا مِنْ بَابِ الإيناسِ والتّعَارُف، فإذا به يطْلُبُ منهم، بصيغةِ الأمرِ بقولِه: ﴿إئتوني﴾، إحضارَ أخيه الصغير، ولكنْ بصيغةِ التعميم لا التَخصيص، بقولِه: بأخٍ، ثم يَدْفَعُ التعميمَ إلى الدائرةِ الأوسعِ بقولِه: ﴿بأخٍ لَكُمْ مِنْ أبيكم﴾.

وفي هذا الأسلوبِ إدْنَاءٌ وإقصاءٌ في آن: فهو يُحَدِّدُ بدقةٍ طَلبَه بإحضار أخيه الصغير، وفي الوقتِ ذاتِه، يُبْعِدُ عنْ أذْهَانِهم مَعْرِفَتَهُ به: ولا يُحْسِنُ هذا الأُسلوب في الكلام، إلا مَنْ آتاهُ الله تعالى موهبةً عاليةً في فَهْمِ طَبائِعِ النّاس.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: ﴿ألا تَرَوْنَ أنّي أُوْفي الكيلَ وأنا خيرُ المُنزلين﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآيةِ، لطائفُ عدَّة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتنا لاستدراكِ يوسفَ عليه السلام، لآثارِ طلبهِ الشديدِ على نفوسِهم، بإحضارِ الأخِ الصغير، وهو يَعْرِفُ أنه شديدٌ جداً عليهم، وأنها ستكونُ مِنْ أصعبِ المهامِّ عليهم، وهو الذي عايَشَ حادِثَةَ نَزْعِهِ مِنْ أبيه قَبْلَ ذلكَ بسنوات. فكانَ أنِ استَدْرَكَ بتذكيرِهم بحُسْنِ صَنِيعِهِ معَهُمْ، منذُ أنْ وصَلُوا إليه.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لمهارةِ يوسفَ عليه السلام، في ترتيبِ الأحداثِ أولاً، ثم مَهارتِه في استثمارِها ثانياً:

فهو لم يَبْخَسْهُمْ شيئاً مِنْ بضاعتِهم، علماً بأنه الطَرفُ الأقْوَى في تقديرِ الأثمانِ، وله الحريةُ في إعطائِهم ما يشاءُ مِنَ المُؤَنِ والغِذاء، فكانَ أنْ أجزأَهُمْ وأوْفَاهُم.

ثم إنه أَحْسَنَ استقبالَهم، وكَلَّمَهُمْ بنفسِه، وأصلَح حالَهم في إقامتِهم بمِصْر؛ فكانَ له بَعْدَ طلبِه الذي طَلَب. أنْ يُذَكِّرَهُمْ بحُسنِ عملِه وإحسانِه على الترتيبِ الذي جَرى.

اللطيفة الثالثة: لغوية، في قولِه: **﴿وأنا خيرُ المُنزِلين﴾**.

فَلَئِنْ فَهِمْنَاها بمعنى: وأنا خيرُ المُضيفين، فالصورةُ تحمِلُنا إلى معنى الإكرامِ بالإطعام، ويكونُ أصْلُ الكلمةِ مِنَ النُّزْل، أو الطّعام.

ولئن فَهِمْنَاها بمعنى: وأنا خيرُ مَنْ نزَلْتُمْ عليه من المأمُونين، فالصورةُ تحمِلُنا إلى معنى الإكرامِ بالإيواء، ويكونُ أصلُ الكلمة: المنزِلُ أو الدار.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن فن الإقناع هو فن صعب دقيق يحتاج من المحدث صفات عديدة صعبة لا تتوفر في كثير من الناس، وإذ أشير إلى مهمة الداعية في الإقناع، فنحن نستدل من تصرف يوسف عليه السلام مع أخوته الكثير من المقومات والمواصفات: فعليه أن يدير الحديث بموجب خطة مدروسة خفية لا يظهرها علنا مسبقاً، يكوّن من خلالها تصوراً كاملاً لحال محدثه، ويفهم طبيعة نفسيته، وما يريحه وما يثيره، وما يطمئنه وما يستفزه، وعليه أن يبادره بالعطاء، سواء المادي أو المعنوي، وعليه أن يغرس في قلبه القناعة بأنه حقاً صاحب أخلاق حميدة، وأنه صادق في كلامه معه. وينبغي عليه أن يكون على حافظة عالية جداً، وذاكرة قوية طيعة مرنة، يرتب من خلالها مجمل المعلومات التي استوعبها من محدثه لاحتمال ضرورة العودة إليها لجعل سبيل الدعوة منطبقة مع احتياجات المدعو الشخصية لما في ذلك من تأليف وطمأنة.

٢ - للدلالة على أن استعمال السلطة لما فيه الخير مندوب ومباح. فلقد استعمل يوسف عليه السلام سلطته في الحكم لإصلاح ذات اليمين مع إخوته، وجمع شمل عائلته.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٧]

نتابعُ معاً أخي المؤمن، هذا المشهَدُ في تأزُّمِه بينَ يوسفَ عليه السلامُ وإخوتِه، في موقفٍ فريدٍ، لطالما انتَظَرَهُ يوسفُ عليه السلام، إذْ أتَوْهُ في زمنِ الشِدّةِ، يَطْلُبونَ المُؤَنَ والغِذاء، فأكْرَمَهُمْ وأجْزَل لهم العَطاء، في استقبالٍ هادئٍ مُطْمئن، ولقدِ استطاعَ بحُنكَتِهِ أنْ يَحْمِلَهُمْ على ذِكْرِ أخيه الذي بَقِيَ عندَ أبيه، وعَلِمْنَا في الآيةِ السابقة، أنه طلَبَ مِنهُمْ إحضارَهُ معَهم، وخاطَبَهُمْ بلُغةٍ هينةٍ لينة، إلا أنها سرعانَ ما تبدَّلَتْ مع الآية، موضوعِ تأمُّلِنا اليومَ، فلنَسْتَمِعْ.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسف عليه السلام: **﴿فإنْ لم تأْتوني به فلا كيْلَ لكُمْ عندي ولا تَقْرَبُون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا التبدلِ السريعِ في أُسلوبِ الكلامِ الذي اعتمَدَهُ يوسفُ عليه السلام، ونحن نتعرَّفُ هنا إلى ناحيةٍ جديدةٍ في شخصيةِ يوسفَ عليه السلام، ألا وهي الحَزْمِ والقُوة، وهو بذلك يَدْفَعُهم إلى فَهْمِ خُطورةِ المسْألة:

فبعدَ أنِ استعملَ أُسلوبَ الترغيبِ في الآيةِ السابقة، في إظهارِ إحسانِه إليهم، وقد أوْفَى لهمُ الكَيل.

إذا به يُتْبِعُه بأُسلوبِ الترهيب، ولا يتْرُكُ لهُمْ خياراتٍ عديدة، فهو لا يقْبَلُ المُساوَمَة، مِمَّا يَدْفَعُ القِصَّةَ إلى فصلٍ جديدٍ مِنْ فُصولِ التأزُّم، وقد أمْسَكَ يوسفُ عليه السلامُ بكلِ الخيوط..

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لوقائعِ تسَلْسُلِ خُطةِ يوسفَ عليه السلام معَ إخوتِه، وتَتوضَّحُ لنا مِنْ خلالِها آثارُ رَحْمَةِ الله تعالى التي أختَصَّهُ بها، في وضوحِ الرؤية، ونفاذِ البصيرة.

فلقدْ بدأ بإكرامهم، ولم يَدعْ لما يَحْمِلُ في داخلِه مِنْ ألمِ الفِراقِ والبُعاد، منْ أثرٍ للظهور. ولم يَتْرُكْ لسنواتِ الخِدْمَةِ في قَصرِ العزيز، والمِحنةِ التي مَرَّ بها، مَجالاً لإلقاءِ اللَّومِ عليهم، ولم يسْتَذْكِرْ سنواتِ السِجْنِ وظُلْمَتِه، وهو لم يَرْتَكِبْ جُرماً، فلقد بدأ بإكرامِهم.

ثم إنه عاجَلَ بإعطائِهمُ الكَيل، فيكونُ بذلك قد قَرَنَ القَولَ بالفِعْل.

ثم إنه أدارَ وِجْهَةَ الحديثِ، حتى حَمَلَهُمْ على ذِكْرِ الأخِ الأصغر، وهنا يَصِلُ بهم يوسفُ عليه السلام، إلى ذُروةِ الإحْضَار: إذْ طلبَ مِنهم إحْضارَهُ.

ثم حَصَلَ تَبَدُّلٌ كاملٌ في أُسلوبِ الخِطاب، وُصولاً إلى إظهارِ الغَضَب!

ثم إنه قَرَنَ القولَ بالفِعلِ مرةً ثانية، فإذا به يُقَرِّرُ علانيةً سَحْبَ الكَيلِ منهم، إلى حينِ إحضارِ الأخِ الغائب.

ويَزدَادُ الأمرُ تأزُّماً، حين يَحْمِلُهم على الظَنِّ أنّه لَنْ يُعيدَ لهُمْ حتى البِضاعَةَ التي أتَوْا بها، ثَمَنَ الكَيل.

ويدفَعُ التأزُّمُ إلى أقْصَى مَدى، حينَ يُهَدِّدُهُمْ بعدمِ العودةِ إليه ثانيةً، لطلبِ الكيل، إذا لم يُحضِرُوا معَهُمْ الأَخَ الأصغر.

ولقد اعتمَد هذه التراتبية الظاهرَة في القَسْوَة، مَعَ إخفاءِ الكثيرِ من الرحمة، ونحن نلْحَظُ رَحْمَتَهُ بهم حينَ نَعْرِفُ:

أنه لم يُخاطِبْهُمْ بما أساؤوا إليه في مَاضِيهم.

وأنه أعادَ إليهم بِضاعَتَهُمْ سِرّاً.

وأنه يأمُلُ عودَتَهم في القريبِ العاجل.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلنا الآنَ لواقعِ حالِ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، وهم يَشهَدُونَ تَتالِي المِحَنِ عليهم، بَعْدَ أنْ أوْشَكُوا على الفوزِ بالغِذاء، والعودةِ إلى وطنِهم:

فلقد أتَوْا ببضاعةٍ راجِينَ استبدالَها بالغِذاء.

وشَهِدوا منْ عزيزِ مِصْر حفاوةً وحُسْنَ استقبال.

وذَكَرُوا عرَضاً أخاً لهم لم يأتِ معَهم، ولم يَجِدُوا في ذِكْرِه بأساً ولا أهمية.

فإذا بالعزيزِ يُفاجئُهم ويَطْلبُ إحضارَه.

ثم إنه يُشَدِّدُ عليهم اللَّهْجَة في الخِطاب، حتى دَرجةِ الوعيد..

ثم إنه يُغْلِقُ عليهم أبوابَ الخياراتِ كُلَّها، ولا يَطْلُبُ إلا أصعبَ الأُمورِ عليهم تحقيقاً.

ثم إنه يَنْزِعُ مِنْهُمُ الكَيْلَ إلى حينِ إحضارِ الأخِ الغائب.

ثم إنه - في ظَنِّهم في تلك اللَّحظات - أنه احتفظَ حتى ببضاعتِهم التي أحْضَرُوها معَهم فأيُّ إحْصارٍ أشدُّ من هذا الإحصار؟

فما كانَ مِنهم إلا أنْ قالُوا: ﴿**سنُرَاوِدُ عنه أباه وإنّا لفاعِلُون**﴾.

لقد ظهر أثرُ التهديدِ بسرعة، إذْ قَبِلُوا مَطْلَبَه، وهنا نَلْحَظُ عوْدَةَ الهدوءِ إلى وَتيرةِ الآيات، بسَماعِنا لقولِ الله تعالى: ﴿**قالُوا سنُراوِدُ عنْهُ أباهُ وإنَّا لفَاعِلُون**﴾.

اللطيفة في هذه الآية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ سنُراوِد، وما تَحْمِلُه مِنْ معانٍ عمِيقة: فالمُراوَدَةُ هي التلطُّفُ والاحتيالُ للإقناعِ بتلبيةِ مَطْلَب، وهُمْ يعرفونَ أَنها مسألةٌ صعبةٌ جداً.

فلقد فعَلُوها سابقاً، وطلبوا مِنْ يعقوبَ عليه السلامُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ يوسفَ عليه السلام، وفَعَلُوا ما فعَلُوا، ثم تَابُوا وظَنُّوا أنها لَنْ تَتَكرَّرَ، فها هي تَتَكرَّر.

ولقد كانَ طَلبهُم في السابقِ عنْ سُوءِ نية، وكانَ ظَنُّ أبيهم أنه عَنْ حُسْنِ نِيَّة، وهم سيَطْلُبونَ الآنَ الطلبَ ذاته، ولكنْ عن حُسْنِ نِية، فكيفَ لهم أنْ يُقْنِعُوا أباهُم أنه ليسَ عَنْ سُوءِ نِية؟

ولقد استجابَ لهمْ أبوهم في السابق، لعدمِ وجودِ السابقة، أمَّا الآن، فالسابقةُ أرْخَتْ بظلالِها على كُلِّ حياةِ أبيهم، حُزناً وأسَفاً، فهل يضْمنُونَ حُصولَ الإجابة؟

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الطمأنينة إلى ثبات حال ما هي إلا وهم وسراب. فلقد تبدو الأمور هادئة تسير سيراً رتيباً حتى لنظن أنها ستبقى كذلك دائماً، ثم يأتي أمر الله تعالى، وهكذا في كل الأمور ودائماً، ولكن على درجات متفاوتة من السرعة، فيتبدل الحال وتنقلب الأمور رأساً على عقب. ذلك لكي يدرك الإنسان أن كل حال يزول، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

٢ - للدلالة على أن العدل في الحكم لا يعني الدعة واللين والتخاذل، بل أن الحاكم العادل حقاً، ينبغي أن يتصف أيضاً بصفات الحزم والجزم والقوة، بل القسوة أحياناً للأخذ على أيدي الظالمين وردعهم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٨]

تصلُ بنا هذه الآيةُ، أخي المؤمن، إلى مرحلةِ التنفيذ العَمَليِّ من خُطةِ يوسفَ عليه السلام غيرِ المُعْلَنة، والتي أعَدَّها بِدقَّة، وكان قد مَهَّدَ لها، كما رأَيْنا في سالفِ الآيات، بأنْ حَمَلَهُمْ بذكائِه على ذِكْرِ أَخيهِم الصغير، وجعلَ هذه المعلومة الثانويةَ في نَظَرِهم، أساساً، أصْبَحَ مصيرُ حصولِهم على الكيلِ مُعَلَّقاً بتفاصيلِه، أي إحضارِ الأخِ الأصغر.

ولنا أنْ نتساءَلَ مَعَ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، الوَاقِفينَ في حَيْرةٍ وذهول:

لماذا يَهْتَمُّ عزيزُ مِصْرَ كُلَّ هذا الاهتمام، بإحضارِ الأخِ الأصغر؟

وهل يُعْقَلُ أنْ يتوقَّفَ كُلُّ الكَيلِ لكلِ هذه العِير، عَنْ هذه المجموعةِ القَادِمَةِ بشِقِّ الأنفسِ، مِنْ مكانٍ بعيدٍ في وقتِ قَحْطٍ ومَجَاعَة، على هذا التفصيلِ، غيرِ الهامِ في نظرِهم؟

أكْثرُ مِن ذلك: لقد أحْضَرُوا معَهم بِضاعَتهم وأدَوْهَا له ثَمناً للطعام، وجَهَّزَهُمْ بالطّعام. ثم جاءَتْ هذه القِصةُ حَوْلَ الأَخِ الأصغر، فإذا به يَسْحَبُ مِنهُمُ الطّعام، ويسْتَبْقِي في ظاهرِ عِلْمِهِم بِضاعَتَهُمْ في حَوْزَتِه، فإذا بِهم بلا بِضاعةٍ وبلا كَيْل: إنهم حقاً في إحصارٍ شديد!

تبدأ الآيةُ أخي المؤمن، بقولِ الله تعالى: **﴿وقالَ لفِتيانه اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ في رِحالِهم﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيَة، لطائِفُ عِدَّة:

اللطيفة الأولى: في مُلاحَظتِنا أنَّ يُوسفَ عليه السلام، وإنْ كانَتْ خُطّتُهُ في الأساسِ ضِمْنِيَّةً خَفِيَّة، إلا أنه أظْهَرَ بَعضاً منها، أمامَ فِتيانِه، دونَ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بحيثياتِها وتفاصيلها، وذلكَ لأَسبابٍ عِدّة:

أولُها: أنه ليس أفضلَ مِنْ نفسِكَ لِحِفْظِ سِرِّك. وهُنا نتعَلَّمُ مِنْ يُوسفَ عليه

السلام، كيفيةَ التصرُّفِ الحسَن، لتحقيقِ النتائجِ الجيدة: أنْ لا تتكَتَّمَ حتى الإغلاقِ والإرباكِ والانعزالِ والانفرادِ، في تنفيذِ مشْرُوعِكَ، ولا تكونَ كثيرَ الكلامِ في إيضاحِ تفاصيلِ ما عَزَمْتَ تنفيذَه. بل تكونُ بينَ ذلِكَ قَواماً.

ثانيها: أنّ يوسفَ عليه السلام، أرادَ أنْ يُوضِحَ لِفِتْيَانِه كيفيةَ التعامُلِ مَع إخوتِه: فلقد عَلِمُوا منذُ قليل، أنه انتهرَهُمْ واستعادَ مِنْهُم الكَيل، واندفاعُ النّفْسِ في إخلاصِها لرئيسها، يَدْفَعُها لِمُجاراتِه في القَسْوَةِ على الوفدِ القَادِمِ، وقد غُمَّتْ عليهمُ الحقيقة، ولقد يَبْدُرُ مِنْهُم تصَرُّفٌ يُسيءُ إلى الإخوة، يظُنُّونَ فيه رِضَى العزيز. فكان أَنْ أَشارَ إليهم، بأَنْ يُعيدوا إليهِمْ بِضَاعَتَهُمْ سِراً، فيَعْرِفُ الفتيانُ بذلكَ أنّ العزيزَ غيرُ نَاقِمٍ حقاً على هذا الوفد.

ثالثها: أنّ يوسفَ عليه السلام، لم يُصْدِرِ الأوامرَ بالتنفيذِ دونَ إيضاحِ أَسبابِ إصدارِ هذه الأوامر. وهذه مسألةٌ هامةٌ جداً، مِنْ مسائلِ علْمِ الاجتماع: ذاك أَنّ العقلَ البشريّ يَمْتَلِكُ مِنَ المرونةِ الذِهْنيةِ ما يَجْعَلُهُ قَادِراً على إصدارِ أشكالِ تنفيذِ أمرٍ ما، بصُورٍ مختلفة، تَتَراوَحُ بينَ اللِّينِ والشِدّة، والدِّقة والخِفّة، والإسرارِ والإعلان، والهدوءِ والجَلَبة، والاهتمامِ والاستخفاف.

فإذا ما تَوضّحَ الهَدَفُ الذي يَرمِي إليه مُصْدِرُ الأَمر، كانَ تصَرُّفُ المُنَفِّذِ مُوافِقاً لهذا الهَدَف.

لذلك، أوْضَحَ يوسفُ عليه السلامُ لِفِتيانِه الهدفَ مِنْ إعادةِ البِضاعَةِ إلى إخوتِه، بقولِه لاحقاً: ﴿**لَعَلّهُمْ يَعرِفُونَها إذا انْقَلَبُوا إلى أهْلِهِم لعَلّهُمْ يَرْجِعُون**﴾، فنَفْهَمُ، معَ الفِتيانِ أنه أرادَ مِنْهم:

أنْ يُنَفِّذُوا هذا الأمرَ بهدوءٍ وسِرّيّةٍ تَامّة، ودونَ عِلْمِ الوَفْد، وتَرَكَ لهُمْ كيفيةَ تنفيذِ ذلك، بأنْ يُقْصُوا كُلَّ القافلةِ عَنْ عِيرِها.

وأنْ يَجْعَلُوا البِضاعَةَ خِفْيَةً عنِ الأعين.

وأَنْ يُحْكِمُوا إغلاقَ الأغطيةِ والسواتِرِ.

وأَنْ تكونَ هي البِضاعةَ بعينِها التي أَتَوْا بِها، دونَ نُقصان..

وأَنْ يَحْصُلَ تنفيذُ كُلِّ ذلك بِرِفْقٍ وهدوءٍ ولِيْنٍ معَ الوفد.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لِغزارةِ المعاني الواردةِ في هذا الشَطْرِ مِنَ الآية:

فيوسُفُ عليه السلام، الذي سُرَّ وابْتَهَجَ بمجيء إخوتِه، قَرَّرَ عَدَم إظهارِ هذه البَهْجَةِ إلى العَلن، حتى استكمالِ عناصرِها كُلِّها.

ولقد أَظْهَرَ أولاً عَدَمَ المعرفةِ بحقيقةِ صِلَتِه بالوَفْد، ثم أَظْهَر تعامُلاً عَادِيّاً معَهم، إذْ ملأَ أَوْعِيَتَهُمْ بالطّعام، وهو عَازِمٌ على إعادةِ إفراغِها. ثُمّ أَظْهَر الغَضَبَ وما هُو بِغَاضِب.

ثم إنه ارْتَضَى أَنْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ القَاسِي، حين استَبْقَى في ظاهرِ علْمِهم بِضَاعَتَهُم، ومَنَعَ مِنْهُمْ الكَيْل.

أمَّا هُوَ في حقيقةِ الأمر، فهو السعيدُ بلُقْيَاهُم، وقد عَفَا عن شِدّتِهِمْ، وقسْوَتِهم، وهو الراغِبُ بإيفاءِ الكَيلِ لهم، بل بإيوائِهم وضَمِّهِم، وهو بذلك يُمثِّلُ النَّفْس السَمْحَة الخَيِّرَة، بخلافِ أحوالِ أغلَب النُّفوسِ البشرية، حين تَتعرَّضُ للضِّيقِ والقَهْرِ والظُّلْم.

اللطيفة الثالثة: في الإيجازِ اللُّغويِّ الذي نَلْحَظُهُ في هذا الشَطْرِ مِنَ الآية: فَمَعَ تَدافُعِ الأحْدَاث. وكَثْرَةِ الصُّوَرِ والمشَاهِد، تأتِينا هذه الكلماتُ القليلةُ لِتؤدِّي المَعْنى المطلوبَ دونَ لبْسٍ أو غُموض، وهي تُوضِحُ لنا تَطَوُّرَ الأحداثِ على النحوِ التالي:

فلقد وصَلَ الإخوةُ في مسْعَاهُمْ للحصولِ على الطّعامِ إلى طَرِيقٍ مسْدُود، وانْقَطَعَ الحوارُ مَعَ العزيزِ على وَعْدٍ مِنهم، بمُرَاوَدَةِ أَبيهم على السَّمَاحِ بإرسالِ أخيهِم الأصغرِ معهم.

وبالمقابل، فلقد وَجدُوا أنفسَهم في أضْعَفِ موقفٍ، إذْ أعْطَوْا بِضاعَتَهم لرجالِ العزيزِ ابتداءً، ولمّا مُنِعَ مِنهُمُ الكيلُ بعدَ أنْ تَمَّ تجهيزُهم به، ضَاقَتْ عليهِم الدُّنيا، وسيستَمِرُّ هذا الضِّيقُ فترةً أخرى، لعدمِ علْمِهِم بحقيقةِ نَوايا يوسفَ عليه السلامُ حِيالَهم.

ثم يَحْصُلُ انفراجٌ مِنْ طرفٍ واحد، دونَ عِلْم مِنهم، بقولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**وقالَ لفِتيانِه اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ في رحالِهم**﴾.

ثم تُتابعُ الآية: ﴿**لعلَّهُمْ يَعْرِفونَها إذا انْقَلَبُوا إلى أهلِهم لعَلّهُمْ يَرْجِعُون**﴾.

في هذا الشَطْرِ منَ الآية استكمالٌ للمعنى الذي وعَيْناهُ في أوَّلِها، معَ تَكَامُلِ عناصرِ المعلومة. فالمتأمِّلُ في قولِه: ﴿**لعلهم يَعْرِفُونَها إذا انْقَلبُوا إلى أهلِهم**﴾ يُدْرِكُ أنّ يُوسفَ عليه السلام، قصَدَ الإخفاءَ في رَدِّ البِضاعة، فنفهَمُ مِنْ ذلك:

أنَّ الرِحَالَ في تصرُّفِ فتيانِ يوسفَ عليه السلام.

وأَنه ذُو حَجْمٍ ثابتٍ، سواءٌ كانَ خَاوِياً أو مُمْتَلِئاً.

وأَنه لا يُعْرَفُ عِنْدَ مَلْئِه ما إذا كانَ مُمْتَلِئاً أم لا.

وأَنه يُقْفَلُ فَلا يستطيعُ النّاظِرُ نَظْرَةً سريعةً أَنْ يَعْرِفَ ما فيه.

ولنا أنْ نتساءَلَ: لماذا فعَلَ يوسفُ عليه السلامُ هذا الأَمر؟

نقول: لأنه لم يُؤَدِّهِمُ الكيل، وهذا هو العَدْلُ والحَقّ. ولأنه قصَدَ أَنْ يعرفوا أنه عَامَلَهُمْ بالقَسْوَةِ في الظاهر، ثم يتبدَّى لهم بعدَ فترةٍ أنه لم يَظْلِمُهم، وأنه عادل.

والأهَمُّ مِنْ ذلكَ كُلِّه، أنه يريدُ عودَتهم مَعَ أخيهم الأصغر، وهذا في الحقيقةِ هَدَفُ الخُطةِ بكامِلها. وهو يعرفُ أنهم مُضْطرونَ للعودةِ من أجلِ الطعام، ويجبُ أنْ يكونَ بينَ أيديهم ما يشترونَ به الطَعام، وذاكَ قولُه لِفتيانِه في نهايةِ الآية: ﴿**لعَلَّهُم يرجِعون**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الشدة والإحصار مهما قويت وازداد خناقها، فإنها آيلة إلى الإنفراج ولو بعد حين. ومشكلة الإنسان أنه لجوج متسرع، وهو يريد أن يرى الفرج من ضيقيه حالاً، والحقيقة أنه في حال اختبار وامتحان، وعليه أن يتحلى بالصبر، ويتذكر هذه القصص المقيدة التي أعلمنا بها القرآن الكريم عن أحوال السابقين، وهي لم ترو عبثاً، بل أعلمنا بها الله تعالى تعليماً وتأديباً.

٢ - للدلالة على أن نجاح خطة ما تحتاج إلى مقومات عديدة منها الإخفاء بقدر، والأعلام بقدر: فلقد أخفى يوسف عليه السلام عن فتيانه صلته بإخوته، وإنما أعلمهم أنه لا يريد بهم السوء وطلب منهم حسن معاملتهم سراً.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤٩]

تنتقلُ بنا هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، إلى مشهدٍ جديدٍ من مشاهدِ قِصة يوسفَ عليه السلام، معَ إخوتِه، في انتقالٍ سلسٍ سَريع، مِنْ حوارِهم معَ يوسفَ عليه السلام، عزيزِ مِصْر، وقد وعَدُوه بمُراوَدَةِ أبيهم يعقوبَ عليه السلام، عنِ ابنه الأصغر، طِلْبَة يوسفَ عليه السلام، وها هم قد عَادُوا أدراجَهم، تتنازَعُهمُ المشاعرُ، بينَ الدهشةِ والاستغراب مِنْ حفاوَةِ العزيزِ بهم في بادىء الأمر، ثم انقلابُ الحفاوةِ تهديداً ومطالب، وبينَ الشعورِ بالخَيبةِ في العودةِ دونَ الحصولِ على الطّعام، والشعورِ بالغُبنِ في بقاءِ البِضاعةِ في حَوْزةِ العزيزِ، والشعور بالأملِ في قَبولِ يعقوبَ عليه السلامُ إجابةَ طَلبِهم في اصطحابِ أخيهمُ الأصغر.

ومعَ هذه الأجواء، نبدأ تأمُّلَنا في الآيةِ الأُولى.

يقولُ الله تعالى: ﴿فلمّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكيلُ فأرسِلْ معَنا أخانا نكْتَلْ وإنّا له لحافظون﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لغوية: فبالعودةِ إلى الآيةِ التي سبَقَتْ هذه الآية، نسْمَعُ يوسفَ عليه السلامُ يقول: ﴿إذا انقَلَبُوا إلى أهلِهم﴾، ونقرأ في هذه الآية: ﴿فلمّا رَجَعُوا إلى أبيهم﴾، فجاءَ السِياقُ اللُّغويُّ بمفرداتٍ مختلفةٍ مَنْعاً مِنَ التَكْرارِ الذي قَدْ يُضْعِفُ الجَمالِيّةَ اللُّغوية.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لِتناسُقِ المَبْنَى معَ المعنى، في المقارنةِ بينَ العِبارتين: ﴿إذا انقَلَبُوا إلى أَهلِهم﴾، في الآيةِ السابقة، وقولِه تعالى: ﴿فلمّا رَجَعُوا إلى أَبيهم﴾ في الآيةِ الحَاضِرَة.

ففي الآيةِ السابقة، كانَ يوسفُ عليه السلامُ يُكَلِّمُ فِتْيانَه، ولم يشأ أنْ يُحَدِّدَ لهُمْ أنّ العودةَ ستكونُ إلى أبيهم، وهو يَعْرِفُ ذلك تَمامَ المعرفة، ولو ذَكَرَ ذلك لكانَ تعطيلاً لخُطَّتِه وإفشاءً لسِرِّه، فذَكَر الأهلَ بالمُطْلَقِ، وهو يقْصِدُ أبَاهُم.

أمّا في الآيةِ الحاضرة، فالإخبارُ لنَا مِنَ الله تعالى، لذلكَ قال: ﴿فلمّا رَجَعُوا إلى أَبيهم﴾.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ الحالِ النفسيةِ لإخوةِ يوسفَ عليه السلام، وهم في حضْرةِ أبيهم يقُولون: ﴿يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكَيل﴾.

لقد انْطَلَقُوا في رحلةٍ شاقةٍ إلى أرضِ مِصْرَ، طلباً للطّعام كما كُلُّ النّاس، وحَمَلُوا معَهُمْ بِضاعَتَهُمْ ليشتروا بها الطَّعام، وسَلَكُوا الطريقَ السَلِيمة، ووَصَلُوا بعدَ طُولِ جُهدٍ وعناء، وسَلَّمُوا البِضاعةَ واستلَمُوا الطّعام، فيكونون بذلك قد

حَقَّقُوا مُبْتَغَاهم، وهَمُّوا بالعَودةِ غَانِمين سالمين آمنين. وفجأةً. وبسبب ذِكْرِ الأخِ الأصغر، تتهاوَى كُلُّ المكاسِبِ، وينقلِبُ الفَرحُ إرباكاً، ويُسْحَبُ مِنهُم الكَيل، ويسْلُكُون أدراجَ العَوْدَة بلا مؤونة وقد عادَ كُلُّ الناسِ مِنْ مِصْرَ مُحَمَّلِينَ بالطعام، حتى إذا مَا وَصَلُوا إلى أبيهم، كان الإحباطُ والإعياءُ قد أَخَذَ مِنْهُمْ كُلّ مأخَذ، وقد استقَرّ حالُهم على أمرينِ اثنين:

الأول: نقلُ صُورةِ الفشلِ إلى أبيهم. فقالوا: ﴿**يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكَيل**﴾.

والثاني: التصميمُ على مُغَالبةِ الفشل، في الجُرأةِ على طَلبِ المَطْلَبِ الصّعْب، وهو آخرُ ما يُمْكِنُ أنْ يُطْلَبَ مِنْ يعقوبَ عليه السلام، وهم يَعْلَمُونَ أنه مِنْ أصعبِ الصِّعابِ أنْ يُستجابَ لَهُمْ فيه. فقالوا: ﴿**فأرسِلْ معَنا أخانا..**﴾

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عندَ قولِهم: ﴿**وإنّا له لحَافِظُون**﴾.

سُبحانَ اللهِ! لقد قَالُوا لأبيهم منذُ سنواتٍ عدّة، وهم يُحاوِلُونَ أخْذَ ابنه يوسفَ عليه السلام: ﴿**وإنّا له لحافِظون**﴾[١].

أمّا في حَقِّهم، فشتان بين الموقِفَيْن:

في الموقفِ الأول، لم يكونوا صَادِقين، لأنّهم كانُوا يُريدونَ سُوءاً بيوسفَ عليه السلام، أمّا هنا فهم صادِقون.

وفي الموقِف الأول، كانتْ سَبيلُ الإقناعِ أيْسَر، إذْ إنها كانَتْ بلا سَابِقة، أمّا هنا، فهي صعبةٌ جداً، نظراً للنتيجةِ المؤلمة الحاصلةِ مِنَ التجربةِ الأُولى.

وفي الموقفِ الأول، كان التوكيدُ في العبارة، إمعاناً في التصميم على الإبعاد، أمّا هنا، فإنّ التوكيدَ يفرِضُه واقعُ حالِهم، وحقيقةُ حاجَتِهم إلى الكَيلِ والطّعام.

---

(١) [سورة يوسف ، الآية: ٦٣].

أمّا في حقِّ يعقوبَ عليه السلام:

ففي الموقفِ الأول، كان خَوْفُه على يوسفَ عليه السلام، مِنْ بابِ الحيطةِ ودَفْعِ احتمالاتِ المَكَارِه. أمّا هنا. فحِرْصُه على الأخِ الأصغرِ يَنْبَعُ منْ ألمِ التجربةِ في فقْدِ يوسفَ عليه السلام..

وفي الموقفِ الأول، كانَ أبناؤه عِنْدَ مَطْلَبِهم، كُلُّهم بينَ يديه. أمّا هنا، فأحَبُّهم إلى قلبهِ مَفْقُود، والإجابةُ إلى المطلبِ قد تُفقِدُهُ مَحْبُوبَهُ الآخَر، وفي هذا قِمّةُ الفَقْد.

وطبيعيٌّ في مثلِ هذا الموقف، أنْ يَرْفُضَ يعقوبُ عليه السلامُ إجابةَ طلبِ الأبناء، وهي رَدّةُ فعلِ كُلِّ أبٍ عاشَ تَجْرِبَةَ فقْدِ أعَزِّ أبنائِه إلى قلبِه. فما كانَ جوابُه؟

نُتابعُ معَ الآيةِ الأُخرى: **﴿قالَ هَلْ آمنُكُمْ عليه إلا كما أمِنْتُكُمْ على أخيهِ مِنْ قَبْل. فالله خَيرٌ حافظاً وَهُوَ أرْحَمُ الراحمين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا لهذا الأدبِ الجَمِّ الذي يَحْمِلُه يعقوبُ عليه السلامُ في أُسلوبِ الخِطابِ، وأُسلوبِ الجَواب:

فلم يَنْهَرِ الأبناءَ ويصُبّ عليهم جَامّ غَضَبِه ولم يُفْصِحْ عَنْ عُمْقِ الجُرحِ الذي سبّبَهُ غِيابُ يوسفَ عليه السلام..

بل كَلّمهُمْ بخطابِ التَّعَقُّلِ والمنطقِ والإقناع، وذلك بأنْ أحالَ عليهمُ الإجابةُ عَنْ سؤالِهم بسؤال، وهذا أبْلَغُ مِنَ الإجابةِ بجواب..

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لأُسلوبِ التّعْليم والتوجيهِ القُرآنيِّ لنَا مِنْ خلالِ القَصَص. ولنَا في أنبياءِ الله تعالى أُسوةٌ حسَنة:

فعلى الرُّغْمِ مِنْ صُعوبةِ الموقفِ ودِقةِ الموضوعِ المُثارِ أمامَ يعقوبَ عليه

السلام. وهو الأكْثَرُ استفزازاً وتحريضاً على الغَضب. أظهرَ يعقوبُ عليه السلامُ أثر عُمقِ الإيمانِ في جوابِه إذْ قال: ﴿**فالله خيرٌ حَافِظاً وهو أرحمُ الراحمين**﴾.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عِنْد مشيئةِ الله تعالى، بامتحانِ صَبْرِ الأنبياء. وهُمْ قُدوتُنا في حياتِنا، فَلِئنْ رأيْنا امتحانَ الله تعالى لأصفيائِه مِنْ خَلْقِه هانَتْ علينا مصائبُ الدُّنيا. وكُنّا أكْثَر قُوةً في مُواجِهَةِ الصِّعاب فَحَتّى هذه اللحظةِ مِنَ القِصّة، كانَ مصيرُ يوسفَ عليه السلامُ مَجهولاً في حَقِّ يعقوبَ عليه السلام. والله تعالى فتَحَ له بعضَ أبوابِ المعرفة، وحَجَبَ عَنْهُ البَعضَ الآخرَ، ولقدِ ارتضَى بما قَسمَ الله تعالى له مِنَ الخير، وسَلَّم أمرَه إليه، وأعْمَلَ اجتهادَهُ فيما حُجِبَ عنه، فكانَتْ منه هذه الممانعةُ الأوّلِية، وسنَرَى في لاحقِ الآياتِ كيفَ سيكونُ جوابُه النِّهائي.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب ضبط النفس عند الغضب، والتعامل مع الأحداث بروية وهدوء وتعقل، إذ أن نتائج التعقل تكون دائماً أفضل بكثير من الإنفعال والغضب.

٢ - للدلالة على وجوب عدم اليأس من رحمة الله تعالى، حتى وإن كان ظاهر الحال يفيد باشتداد التأزم لا يُرى معه بصيص نور، فما من حال يبقى على ما هو عليه.

٣ - لحفظ عبارة: ﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾، واعتمادها آية حفظ ورعاية وعناية ربانية، حين نودّع أحبابنا وإخواننا، وتحفيظها لأبنائنا لتكون جزءاً من زادهم في دنياهم، تعبيراً منهم عن التصاقهم بالقرآن الكريم.